نومـيـنـسا

العنوان: نومينسا

المؤلّف : نجيب فتاحي

نوع الكتاب: رواية

الرّقم الدّولي: 978-9973-9843-5-7

المطبعة: المغاربيّة لطباعة وإشهار الكتاب

الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع

مجاز الشرف بوسالم، 8170، جندوبة

alferdawsedition@gmail.com

(+216) 28 845 575

تصميم الغلاف والإخراج الفني: PICTO

الطّبعة الأولى 2020

جميع الحقوق محفوظة

نجيب فتاحي

نومينسا

الفردوس
للنشر والتوزيع
ALFERDAWS
EDITION

مقدمة

بقلم الأديب: فرهاد دريعي

وأنت تقرأ هذه الرواية، تتملكك نشوة الأقدمين في مآثرهم وأخلاقهم، في أنفتهم وعاداتهم، في أساطيرهم وحكاياتهم. تتجول معهم في ساحات القتال والبطولة وتلهج بالشلحة وتستمع للحكمة والقول المأثور .تشاركهم موائد الزميط والترفاس واليازول. وكذا تستمتع برؤية الجمال الموشوم بالأخضر على خدود وأطراف نسائهم الملكات والعذراوات. إنها لغتهم وحروف أبجديتها الثكلى التي لم تكتمل فلجأوا إلى دلالاتها ورموزها وكأنهم يشعرونك بإصرارهم أنها لن تزول.

فمثلما خبأ الأعمى الكتاب في الكهف كما ورد في الرواية في دلالة الحفاظ على اللغة، تزينت النساء بوشم نافذ إلى الدم لصيقٍ بالعرق حرصاً من هذا الشعب على هذه اللغة من الانصهار والانحلال.

وأنا اقرأ في الرواية، تأخذني قشعريرة الذهول. عالم بلا نهاية من الدولة والانتماء غائر في أبجدية التّاريخ في نصوص تجمعت على هيئة ملحمة. عمل ينم عن ثقافة واسعة وجهد مضني مبذول، شمل نبش قيم المكان، والهروب خلفا في الزمان برؤية شاملة، وصياغة تخترق جدار اللغة، انبرى لها الكاتب في سرد دقيق، كاشفاً عن عراقة أمّةٍ عراقةَ أرضها

وحضارتها .الممتدون فوق خارطتهم على اتساعها ورحابتها من غرب مصر إلى الأطلسي وجزر الكناري طولاً ومن المتوسط إلى موريتانيا وشمال مالي والنيجر عرضاً.

في الرواية ثمة صوت جهوري هادر يكشف عورات المحتلين والغاصبين ويظهر جوانب الخلل في المجتمع الأمازيغي، والتي يستغلها الأعداء والخصوم للتسلل إليهم عبر موالين خونة يبثون التفرقة ويخلقون الصراعات بين أبناء المجتمع الواحد لإضعافهم والنيل منهم – بوكوس مثالاً .كما ورد في الرواية.

إذ ليس في مقدورهم اقتحام تماجورت واستعباد نوميديا وأهلها .لذلك لجأوا إلى استغلال النفوس الضعيفة وشراء الذمم. إنهم الرومان الإمبراطورية الأشدّ فتكاً وضراوة، يندحرون أمام استبسال تماجورت وغيرها من الأصقاع الأمازيغية.

يقول مخاطبا جحافل الرومان:

(أمازيغيتي

طبيعتها قاسية

موتوا من الجوع بداخلها

وسنخرج لكم من أعماقها لندفنكم) من الرواية.

لقد حاربوا على جبهتين وكانت الثانية أشد هولاً، فثمة خونة ومندسين يناصرون الكنيسة في روما، باعوا أنفسهم وباتوا يلعبون أدواراً مدمرة وتثبيطا لروح المقاومة التي اندلعت في تماجورت والسوس وقفصة والاوراس وغدامس وغيرها من

الأصقاع الأمازيغية الشاسعة، يرون في الموت من أجل الوطن حياة أخرى رائعة وبهية.

(عند الأمازيغ، عندما يموت الإنسان يعود الى فطرته الأولى ، إلى زمن السعادة .) من الرواية

من خلال السرد تتلمس الميثولوجيا الأمازيغية بشكل جلي تبدأ من المعتقد الديني حيث الشمس كانت أولاً وكذلك القمر / آمون / متأثراً بالدين السائد في مصر القديمة، وكذلك عبادة قبور الأجداد التي تحظى بوقار وقدسية إلى يومنا هذا، ناهيك عن الديانة المسيحية التي كنت لها الحظوة والريادة في المجتمع بطقوسها وكهنتها. وبعد ذلك بزمن طويل جاء الدين الإسلامي كمعتقد بديل عن كل ما مر سابقا من معتقدات وأديان. إذن مر الأمازيغ بقرون طويلة من المعتقدات المختلفة .فأغنت مداركهم وأثرت ثقافتهم بالأساطير والحكايات والحكم والاقوال المأثورة .

نوميديا شهدت قدراً كبيراً من التنظيم بالرغم مما كان يشوبها، الكثير من التناحر والتفرقة واختلاف اللهجات وغيرها من المظاهر التي كانت تؤثر سلبا على بنية المملكة وحياة أفرادها . هذا التنظيم تجلّى في قيادة مجلس الاثني عشر التابع لسلطة الملك (هوار بن أوريغ بن برنس)كما ورد في الرواية . وكان الصراع محتدماً بين السلطتين السياسية والدينية المتمثلة في التيديت.

هذا كان يشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل الملك الذي يسعى إلى وحدة الصف واستنهاض الهمم للوقوف في وجه زحف الرومان ومكائدهم. هذا الملك لم يكن بالمقابل ذلك الكائن البشري الذي تتجسد فيه معاني النبل والنزاهة بشكلها المطلق، لقد دفع برجل من حاشيته ليغتال ابنه(أنير)ليس خوفاً من أن ينقلب عليه وينتزع السلطة من والده ومقاليد الحكم ، إنما فقط لأنه اشتهى زوجة ابنه (نومينسا) منساقاً وراء غريزته البهيمية لامتلاكها وإشباع نزواته منها في هيئة حب محرم . في مسعى للكاتب لإظهار نوازع النفس البشرية المتناقضة والتي هي أقرب لى انفصام وشرخ في الذات البشرية وما تخفيه في بواطنها من جمال وقبح في آن واحد.

هذا ينطبق على شخصية محورية أخرى وهو(أمسناو)الذي يرأس جماعة التيديت الدينية ، إنهم المعتزلة المعتكفون والزاهدون في الحياة . إنهم أشبه بالرهبان .ملتزمون بطقوسهم ويثورون في وجه من يخرج عن قاعدتهم حتى إذا كان الشخص هو الرئيس نفسه، فتصرفات أمسناو وعنجهيته قوبل باستهجان وتذمر من التيديت، أمر يشي باقتراب انقلاب على السلطة والقيادة المنحرفة.

(أنت يا أمسناو ببساطة تستطيع أن تنام خارج الكهف وتحقق رغباتك المحمومة وبقية التيديت نعيش كالجرذان داخل هذه الحفر طامرين أنفسنا أبد الدهر)الرواية .

وفي جانب آخر يقوم أمدياز – وهو واحد من جماعة التيديت –بمخاطبة الملك على إثر تهديده لمجلس الاثني عشر، مخاطبا الملك بنبرة منذرة بتمرد وثورة قائلاً: (أنصحك أن تتذكر دائما أن الشعب قد اختارنا لنختارك .)الرواية.

الكاتب سلط الضوء على مختلف جوانب الحياة الأمازيغية، ولم يغفل استعراض المفاهيم والقيم الأخلاقية، التي بقيت متوارثة وما زالت كعدم مخالفة الابن لأوامر ومشيئة أبيه، وعدم المساس بسمعته حتى إذا كان هذا الوالد سيئاً ومنحطاً .إن عدم الانتقاص من هيبة الوالد ومكانته الاجتماعية المقدسة هو من بديهيات الشخص الأمازيغي وسمة يتفاخر بها.

وأنير ابن الملك هوار الشخصية التي توارت باكرا وتركت بصمتها على مجمل أحداث الرواية مثالاً يقول لأبيه الذي سعى لقتله للظفر بزوجتة أمسناو:

(لا اتجرأ أن أسألك لِمَ فعلت هذا ؟ لأنك أبي .) الرواية.

وحتى بعد أن استطاع أنير المطعون انتزاع الاعتراف من فم قاتلهِ بأن الوالد قد دسّ لقتل الولد .قال أنير مخاطبا أباه معتذراً بأنه قتل الرجل الذي بعث في مهمة ملكية لاغتياله:

(أبي سامحني ، قتلته حتى لا ينتبه جنودي إلى توسلاته، ولا يسمع أحد اعترافه لي بأنك من أرسلته لقتلي .)الرواية.

إنه مثال لقائد عسكري عتيد، رافضاً مقولة" إن سقط القائد سقط الجيش " أو إن احتلت تما جورت سقطت المملكة، فهو

يطلب من شعبه أن يستمروا في مقاومة الغزاة بعد موته . وأن يجعلوا من أرض تمازيغت مقبرة لهم.

ولم يغفل الكاتب ما تعتري نفس المرأة الأمازيغية من المشاعر / الحب – الانتماء - الكره -الثأر-الوفاء / كل ذلك ممزوج ومنصهر في بوتقة الروح الأنثوية بحيث يصعب فرزها عن بعضها. فنومينسا المحبة التي فجعت بمقتل زوجها وحبيبها أنير بن هوار، باتت ترتاد المقبرة جل ليلها في تواصل روحي متين مع زوجها المغدور، وحدسها ينبئها بأنه ما زال حياً والوفاء له يحتم عليها أن تنتظر عودته مهما طال الزمن.

ونومينسا المنتقمة الثائرة استطاعت أن تغرز الرمح في صدر الملك والد زوجها الذي طالما كان يراودها عن نفسه بكثير من الحب والرغبة والاشتهاء. والذي قال لها بتوسل قبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة إن مطلبه الوحيد أن تبادله قبلة ساخنة وتحديداً في فمهِ.

نومينسا فعلت ذلك، ونزلت عند رغبته طوعاً، وأطبقت بشفتيها على شفتيه وهو ينازع الموت في رمقه الاخير . وعلماء النفس والاجتماع وحدهم يستطيعون إيضاح كوامن الفعل هذا.

وتخلص الرواية بأن هناك دائماً من يسهر على أمن المملكة. وهناك دائماُ شعب ينتظر عودة أنير / المهدي / كي يوحدهم ويسير بهم إلى واحة السلام وقمم المجد. وهناك دائماً طليعة

جعلت من نفسها درعاً تصدُّ ما يحيكه الطامعون الغزاة ، من دسائس ومؤامراتٍ على هذا الشعب العظيم منذ فجر تاريخه.
الرواية تضم بين دفتيها أحداث ملحمية عديدة بحيث لا تسعها هذه المقدمة المتواضعة.
إنها باكورة أعمال الكاتب الروائية، عمل قيّم أضيف الى المكتبة الأمازيغية والعربية، يثنى عليه وله الشكر

أ. فرهاد دريعي
قامشلو /سوريا
في ٢٩٧٠/١/٩ أمازيغية//9/ 1/ 2970
٢٠٢٠/ ١/٢٢ ميلادية//2/2/ 2020

الفصل الأول

كزّت على أسنانها، وعبّأت صدرها بشهيق متقطّع مثقل بحقد قديم..؟!!

نومينسا[1] الجميلة نور القمر دثّر وجهك، خلقت يداك لتحمل الأزهار وتستكشف أسرارها، وأصابعك لتكتب أسماء العشاق فوق ضروع الأشجار..

-ولكنك سرقت من فمي الابتسامة وحفرت لها قبرا بذريعة أنهم لا يعرفون كيف يمكن أن يحفروا قبرا لائقا لي؟ وعندما ضغطت على كتفيك بقوة وقلت نحن لا نتسلى بقتل أنفسنا صرخت بقوة،ليؤنبوني:

لا تزعجي أختك الصغرى يا لاميا.. ضعي لها سجادًا مليئا بفرحك كله.. ودعيها تمشي عليه، كفاك غيرة.

لأنني البنت الكبرى كنت حقلا لتجارب أبي وأمي، اكتشفا العالم بعد أن فرما لساني وهما يكتشفان أعضائي ويتساءلان كيف تُربى هذه الأنثى بشكل جيد ...

لا تفعلي هذا؟ لمَ فعلت ذلك؟ تعالي هنا .. لا تذهبي إلى هناك!! لا تركضي حافية القدمين أنت سنبلة طرية قد تلتقطك العصافير. تنامين خائفة لأنّك تلعبين مع من هم أكبر منّك سنّا..

---

[1] نومينسا : اسم أمازيغي يعني الوردة الجميلة

الدخان يتصاعد من أحلامك... حرَماني من البحث عن هواء نقي في الجبل ...أن أطارد فراشة..

كانا يقولان لي:

-عندما يهطل المطر لا تغمضي عينيك، قد يقبلك فارس لا نعرفه.. ليس لديك أصابع، لتفتحي النّافذة! أخفينا عنك هذا العالم، لأن الشوارع ملطخة بآهات النّساء، ومليئة بخرافات الرجال..

أحببتُ الطيور كثيرا لكنّهما منعاني من النظر إلى السماء، خوفا من أن أقع في الحفر وأنا أهرب منهما.

وأحببت الربيع.. فاعترض طريقي الغول، يختبئ في الغابة يغسل دمه بخضرتها سيعترض طريقك، ولأنك غبية ستظنينه الرومانسي الذي أحبك؟!

أما هي.. هي شيء آخر حتى وإن مرّغت خصلات شعرها بالأعشاب يقولان:

أنها كانت تسويه بشكل مناسب. وليست امرأة مجنونة أو مظهرها قبيح، كل تصرفاتها راقية! عندما تبكي يجلسانها فوق أرض دافئة ولا يقولان لها قفي وحدك.

ببساطة كانا يتركانها تطلق رغباتها المحمومة فتسرق وردة من الولد الوفي الذي أحبها. وتنضم إلى خلية صغيرة لا تتعب من اللعب.. فتعود إلى الكوخ بعد غروب الشمس دون أن تمسح عرقها.. ولا يعاقبانها ولا يبعدان عنها حيواناتها المفضلة .. أما

أنا.. !! أنا.. إذا رفعت يدي وصرخت: يوجد ألم في حنجرتي؟! يؤنبانني!!

لمَ جسد شقيقتك نومينسا بارد هكذا؟ أعطيها الهواء الذي في رئتيك...

ولهذا.. لم أفتح قلبي فلم يدخله أحد.. بقيت منغلقة. سُحبت الأضواء منّي حبا لها لتلفت انتباه الآخرين إليها

انفجرت لاميا[2] باكية ..

وانطلقت تركض كامرأة يائسة تهرب من كابوس.. ولن تعثر في طريقها على وردة. كانت تدوس الأعشاب بقدميها الثائرتين والأعشاب تتلوى ألمًا. لا حقد يساوي كرهها الدفين الذي حملته الريح صدى مهيبًا ينبئ بالكثير من الانتقام..!!

أنتِ "تنكمارت نسمضلن "يا جسد البغلة".

ليلة البارحة عندما قام الجميع إلى النوم وانتصف الليل هل كنت تتمددين على العشب داخل الأحراش المخيفة وترقصين "يا بغلة القبور" !!!!

ماذا كنت تفعلين "يا نومينسا"؟!! فوق هذه السّاحة ستعترفين.اعترفي لأهل القبيلة بأنك المخيفة أيتها الوردة الجميلة!!

صمت مخيف وهدوء ملفت شعّ منه الظلام على وجوههم.

حتى "هوار بن أوريغ بن برنس"[3] كان يتصرف بغرابة،

---

[2] لاميا :إسم إلهة الرعب عند الأمازيغ

[3] هوار بن أوريغ بن برنس: نسبة إلى قبيلة هوارة من أكبر القبائل الأمازيغية في شمال إفريقيا.

ينظر إلى الأرض ثم يرفع رأسه إلى السّماء، ربما يحاول أن يظهر أقلّ حزنًا وهو ينظر إلى الأغلال تقيّدها والسلاسل تكبّلها وليثبت أن للملك وجه الحجر.

ماذا فعلت بها الخطايا ولماذا يلقونها في هذا العمق، ويربطون هذا الجسد النّاعم إلى جذع نخلة ضامر ولا يتألمون من حركة يديها الضعيفتين المُتعانِقتين خَجلاً!!!

ـ يا أهل المجلس، لا يغرَّنكم الوجهُ الجميل، فكم في الزهرِ سمٌ وكم في العُشْبِ عقارُ.

-اصمتي يا لاميَا. أنت تتدثّرينَ بجراحي. خطاي التي تشوهينها أنتَزعُها من حفر اليأس دمعة، دمعة، نعم. كنت أركض و أركض بعيدًا.. ولا أرى أمامي إلا قبرًا واحًدا أتعثر وأسقط فوقه.

نعم، لم أكن في غرفتي..

-لاميا آه ويلي ما الذي ألمّ بها!! مَنْ ينتشلها من سقوطها مَنْ ينتزع هذه البغلة من ذلك المستنقع المخيف؟ قالت نومينسا.

-أنا لست بغلة قبور.

-بل أنت الأرملة التي تخطف رجالنا.

-ومن رآني أفعل هذا؟

-سمعنا صوتك في الليل.

- وأي معصية ارتكبت؟

- ماذا تفعلين كل ليلة عند قبر زوجك؟ تتعرين أمامه وتغوينه أم تغمضين عينيك حتى لا يراك أحد وأنت تحملين فوق ظهرك رجلا ضربته على رأسه بحجر لتدفنيه حيا؟

صرخت نومينسا صرخة تثير الألم. وقالت مرعوبة:

-ماذا فعلتم بزوجي؟

أخذت تنوح عليه..

دونك يا أنير[4] أشعر أن قلبي فارغ، وأنّي أحمل هموم العالم كاملة، موتك أغمد رمحه في شراييني، شقّ كبدي عليك.

أنير. بعدَك أصبحت كالبيت الخرب الذي لا سقف له.

كلما ذكروا اسمه أمامها تصاب نومينسا بنوبة هستيريا.. وتبدأ بالهذيان كأنها تتواصل مع شيء لا مرئي يبعد بصرها عن الواقع. لدرجة أنها لم تكترث حين هتفت الجموع باسم الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" الذي كان يجلس على كرسي عالٍ عظيم صنع من عاج. له رأس مستدير من ورائه، ويدان على شكل أسدين تحيطان بجوانبه واثنتا عشر أخرى واقفة على الدرجات الست.

لم تنتبه عندما وقف بثبات الملوك من على عرشه الذي غُطِّي وكسي بمظلة واسعة مزركشة بألوان زاهية. نظر إليها بعينين مفتوحتين باتساع كأنّهما لا تنامان. وقال مؤنبا:

-"نومينسا"، لا يَتَبَقّى من الذكرى إلا البكاء فقط !! إنّه ابني أيضا. أتظنين أنه لا ينقصني شيء في غيابه؟ سميته "أنير" فكان اسمه مشتعلا ولم يتناقض مع دلالة لفظ كنية شعبنا..

✓ أمازيغ تعني الأحرار ✓

[4]أنير: اسم أمازيغي يعني الملاك أو المشتعل

قاد ثائرةَ الرّجال من جبال الأوراس في أعظم ملحمة، شارك فيها شعبنا المتفرق من بلاد النخيل بين غدامس والسوس الأقصى بالتلول والجبال والضواحي ومن كل البطون، ملحمة جففت دماءنا وقادتنا إلى الينابيع. كوني فخورة به فقد أبعد خطر أصحاب القلوب الخرساء عن مملكته وشعبه..طرد شرهم بجسده وروحه وعاطفته واستولى على السيف بعد هزيمة العدو. وكالإله قضى على الأشرار الآثمين، منع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء . . أرغمهم على التراجع.. وأخرجنا من سجنهم الطويل..

أنظري إلى الحلم الذي أصبح يطفو على الماء.. نوميديا مسحَت دموعها أخرجت غصنا من جديد، عاصمة جميلة اسمها تماجورت[5].. توحدنا لأننا لم نعد خائفين من ماضينا.. طريقنا واحد وإن اختلفنا في المسيرة.. ونحن نصل.

اِرمي هذا الوجه الشاحب يا نومينسا؟!! مازالت لوحتك جميلة، لم تتساقط عليها الأوراق الصفراء ولم تحدث داخلها مذبحة لتضيع معالمك وتتشتت ألوانك. أبعدي هذه الأطلال المندثرة عن وجهك. لماذا أنت مثقوبةٌ أخرجي هذه اللعنة وهذا الموت. يمكنك الالتئام يوجد داخلك منفذ للحياة.

[5]تماجورت : اسم أمازيغي يعني القرية القديمة وتقع القرية في الجنوب الغربي للجمهورية التونسية ولاية ڤفصة.

لكن ما إن نطق الملك كلمات اللعنة والموت اضطرب فجأة كأنّه لمس شيئا أخافه؟

لتظهر علامات الخوف على وجوه السكان المجتمعين كأن كلّ أصوات الدنيا المخيفة تلاحقهم أو أنّهم مهدّدين بكارثة شاملة..

كانوا واقفين في ساحة رملية كأنّها ستبتلعهم، أطلقوا عليها اسم السّاحة الحمراء. فوقها قصر متربّع على قمة الجبل تحاصره قرى ومنازل متراصة. ليبدوَ معلقا بين الأرض والسماء.

لقد اعتادوا أن يجتمعوا هنا لعبادة القمر الذي يعرف عندهم باسم "تزيرى" وليشكروا الشمس العظيمة والكائنات السماوية لاستقبال حياتهم. أو للتشاور. لكن هذه المرة، كأنهم اجتمعوا لمناقشة مشاكل العالم في تُربةٍ رخوةٍ حينا وصلْدةٍ حينًا آخر.

صوت نومينسا هذه المرة كان مرعبًا وعلا وجهها الشحوب واصفر لونها وهي تقول خنتموه.. خنتموه.. خنتموه .

أرى سيفه العظيم الذي ترتعب منه العاصفة والوحوش، سيف يُحْمَلُ بصعوبة بيدين اثنتين، ويحمله هو بيد واحدة، أراه مقبلاً من خلف أتراس جنوده وأعدائه متمسكين بأحصنتهم كأنهم متمسكين بنهود أمهاتهم من الخوف. ووراءه كلب خائن لا يبدو شرسا لكنّ عضته جبانة.. أرى أرض المعركة تعيسة موحشة كليالي تشرين الباردة.. تمتد بلا رحمة إلى ما لا نهاية.

ورياح قوية سامة كمجرفة صلبة تتلاعب بعظام ضلت تتحدى عواصفها..

أرى الجندي في الجيش الروماني ذو الجسم الصغير واللثة الطرية، يدمدم متذمرًا من الشمس الناضجة واصفًا نفسه بالبغل الذي يخدم أباطرته وقاداته الذين يقيمون بعيدا عن ساحة القتال يمشي بصعوبة وتردد وكأن خطاه مبادة منفعلاً من ثقل عتاده الذي يتضمن درعاً يكاد يبصق جسده خارجه ويقول له لمَ لَمْ تستأذنّي، وخوذة تأكله تغلف جبينه وتخفي رأسه، وسيفا في غمده معلقا بشريط لامع على جنبه، والعرق ينهمر منه بغزارة..

أرى هناك فرسانا يَثبتون في البر، ويبطشون في البحر من يلعب معهم يموت لأنهم يحيون بعدد الموتى. طوّقوا جيوش روما من الخلف.. روما التي لم تصمد رماحها الطويلة أمام حراب من لهم سبع أرواح. الأمازيغ الذين لا يؤمنون بأن العدالة تتحقق بين نابي الأفعى فيقفزون فوقها كالغزالة ويحطمون رأسها بقوائم أفيالهم.

حبيبي كعادته في الطليعة يحارب مع جنوده... كالشمس يرسل لهم الحرارة وكالعصافير يزين لهم السماء علّمهم أن لا يوزعوا النياشين على مغتصبي العالم وأن يقاتلوا كسرب من النّسور وأن لا يسرقوا سمكة من يد طرية ولا يلعقوا أواني الملوك.

كان قائدهم الحقيقي الذي لا يختبئ في خيمته إلا لإعداد الخطط الحربية، القائد الذي ضرب جذور عدوه فسقط قنصل روما عن صهوة جواده إلى الأرض..

أرى أنير حبيبي مع فرسانه يحتفل بالنّصر

أنير سيطعن من الخلف! من رفع السيف فوق رأسه، وأشعّة الشمس ورذاذ ضوئها يلمعان على نصله ينبهانه؟!! لمَ لمْ يبعد أحدكم السّكين عنه؟ هل طعنه فعلا ؟؟ خنتموه ..خنتموه..

بعد هذه المشاحنات جرحت الكآبة وجهها الجميل أصبحت "نومينسا" لا تتنفس كأنها شمت رائحة الأموات فأغمي عليها اقتربت منها كاهنة القبيلة ماتِيا[6] تلك العجوز التي تدرك ما لا تدركه الحواس العادية.

أمسكتها من يدها فأخذتها رعشة كبرى وهي تشم رائحتها ثم أخذت تنظر للجمع الذي ينتظر منها أن تحرّر أجنحة هذا السؤال الذي يجتاحهم ؟؟!!.

شمّت ماتيا رائحة جعلتها تكف عن الدوران حول نومينسا روائح مليئة بالاختناق تريد من الأمهات أن يكففن عن الإنجاب لا تحب المدن الجميلة وتلتف حول عنق الثورات جعلتها تتيبس مكانها...

لم تعرف كيف تصفها، فأشارت لهم اتركوا نومينسا الليلة هنا لغاية في نفسها قالت لهم هذا، غاية تبدو أنها تتدلى من الموت مكفّنة بالدماء ولا تسأل إلا على المرارة.

ستضيق الأرض بهذه الشقية لكن الحياة ستتسع لها من بعد.

انفعلت لاميا شماتة في أختها؟

صرخت في وجه القوم المرتبكين: ألم تسمعوا كلام كاهنتنا؟!

[6] ماتيا: اسم أمازيغي يعني سيدة النساء.

قالت لكم أتركوها الليلة هنا... وفي الصباح لن تجدوا ساحة المملكة ملطخة بالدماء، لن تستيقظوا على خبر اختفاء رجل أو موته. أتركوها فقط تجوع... وعندما لا تجد رجلا تغويه وتجره إلى الأماكن النّائية قرب قبر زوجها لتنزع ملابسه وتلتهمه وتعبث بأعضائه ... سيضعف جسدها وترتعش بقوة لتظهر لعنتها. ستصيحون من قوة الصدمة عندما ترون قوائمها وذيلها وتكتشفون أن نومينسا أختي نصف بغلة ونصف أنثى.

هذه المرة أنت مقيدة يا تنكامرت نسمضلن[7] إلى متى ستصمد بهيمتك؟ الشيء القبيح الذي تخفينه سيأكلك إن لم تخرجيه.!!

بدأت الشمس تأفل. انسلّ الجميع خائفين، وكأنهم مصابون برهاب الوهم والظلام. لتبقى "نومينسا " وحدها في نفق هذا السؤال الصلب هل هي فعلا بغلة قبور؟

[7]تنكامرت نسمضلن : أسطورة أمازيغية تعني بغلة القبور. جنية في هيئة نصف بغلة ونصف امرأة تمتاز بقوة هائلة وهي تجر السلاسل وعيونها مشتعلة كفوهة بركان تظهر في المقابر وتبحث عن الرجال لتغويهم وتفترسهم بعد أن تنكل بجثثهم وخاصة أعضائهم التناسلية. مع العلم أنّ هذه الأسطورة ظهرت في عديد الحضارات القديمة في شكل مختلف نصف امرأة ونصف حيوان.

الفصل الثاني

عندما شرب الليل النّهار جاء ورجلاه تخطان الأرض من على جواده الذي بدا فوقه من بعيد كأنه يرقص رقصة هادئة معه.

هل هو جريح أم هو ميت ؟!

اقترب أخيرا بعد أن تصعّد الجبل..

كان يحاول جاهدًا إخفاء ملامحه التي رسمت على محياه لغة شخص جاء ليرثي لا ليتحدث مع سكان "تماجورت" عن الحب.

كاد يبلغ القصر من دون أن يلمحه أحد أو يجد من ينتظره.

وفوق السّاحة الحمراء على الرمال الناعسة همهم بكلمات كئيبة لحصانه وهو يمسح عرفه الذهبي هل مازالوا يتذكرونني؟!

كان ينظر بكل هدوء بلا ضجة إلى الأكواخ المتهالكة والقصور المتعالية كأنه يقول للجميع بصمته ناموا لن أفزعكم. لكنّه ما إن ترجل ومشى قليلا حتى رآها، جسدا بشريا حيا جميلا لؤلؤة مخبأة في تابوت.

نومينسا المغروسة في النخلة قدماها تتدليان كسنبلة يابسة رغم خمود جيدها النحيل، بدا شهيا كعرجون من العنب الأصفر وهي مبللة بالعرق جبينها وقدماها العاريتان تقطران ندى.

اقترب منها فازدادت دقات قلبه تسارعًا. من دس في عينيها هذا الجمال كأنّها تخبئ داخلهما عشرة أقمار؟ عيناها تشبهان عيني

الأيائل والغزلان رقة. كانت بشرتها البيضاء تشرق في هدأة الليل وكأنها تستعير من القمر لونها الشفيف وشفتيها المضطربتين تتلألآن كعينيها الملونتين كزهرة رقيقة في حقل هائج. والنمش منقوش تحت رقبتها وفوق نهديها يغني حزينا من جمع تويجاتها.. وذلك الوشم الدافئ ليس مجرد رسوم عادية إنه أهازيج وخطوط طبيعة خضراء على وجنتيها وخدودها المشعة الخلابة.

لم يتفطن الفارس لنفسه إلا وهو يسقيها الماء. كانت تشرب من كفه كعصفورة مذعورة. تسمّرت يدا الفارس وأرهف السمع، قرقعة خفيفة تلاشت بعد برهة ولم يبق منها إلا هذا الغناء:

"نومينسا ليست بغلة القبور
جوهرتها النادرة لا تُرى إلا في الليل
فتمهّل وأنت تخيفها
كل القرية نائمة
قد تثير شَعْرَ الفتاة الصغيرة
وهي تشرب بلطف
فتموء كالقطة وتعضك.."

شعر بوخزة عضته وقد وقف شعرها لتسقط الركوة من يده فشهر سيفه غاضبا مزمجرًا، وقبل أن يتوقف قلبه ظهرت من العدم واللاحضور، العجوز ماتِيا تمسك نومينسا من يدها من جديد وتأخذها رعشة كبرى وتسترسل:

يا اسمر اللون، يا كثيف شعر اللحية، يا حسن الوجه، شَعرك من ناصيتك مسترسل على جبهتك، أنت كالخيل في نواصيها.

أنا أدرك ما لا تدركه الحواس العادية

مع هذا الخوف الذي أحدثته شفاه ماتِيا ومع كل الظلام الموحش الذي أحاط بنومينسا بات من الصعب معرفة من القاتلِ ومن والقتيل؟

ومن هناك تراءى لهم من القصر المتربع على قمة الجبل، شبح يمشي بطريقة ثقيلة ومتضاربة يحمل مشعلا وينزل بسرعة في اتجاه الساحة الحمراء، اقتربَ فبدأت "نومينسا" تنتفض بغضب وانفعال شديدين كأنّ هذا القادم سفاح سيغزوهم.

ما إن وصل الفارس حتى صرخ بهم:

-من..؟

أجابته الكاهنة ماتِيا قبل أن يكمل:

-نحن أيها الملك، ثم أردفت قائلة: اقتربْ

اقتربَ ببطء

كل شيء بخير... لم يعصِ أحد أوامرك.

إنّه " بوكوس" لم تعد الأرض تئن تحته لم يعد سجينًا لدى الرومان لكنه جلب أصفاده معه. فرّ من أسره. عاد إلى أهله من بعيد... إنّ جسده رث وقلبه جاف هل نحضر له طعام الجائعين ليأكله كلّه؟

ردّ عليها: الملك "هوار بن أوريغ بن برنس"

-لا أصدق! عمّن تتحدثين؟ لقد أسره الرومان.. إما عذبوه أو إنه انتحر؟! من هذا الشخص..؟

قرّب المشعل من وجه " بوكوس "المتعب، تفرّس في ملامحه فرآه مشتاقا إلى الحرية.سأله:

-لمَ لمْ يقتلوك؟

لم ينحن بوكوس أمام الملك. قال متمردا:

ـ قبل أن تسألني كيف عدت وقبل أن نتعانق، من الذي تجرأ على ربطها إلى جذع نخلة بهذه الطريقة الهمجية، من يخنق حريتها ويؤذي أصابع يديها؟ ألا تكفي خيانة "أنير" القائد حتى تنكلوا بزوجته!!!

وبينما بوكوس منشغل في ثورته الصغيرة، أطلق الملك" هوار بن أوريغ بن برنس" يده بوحشية أرغمه بالقوة أن يصافحه وبلغة الجسد جذبه للأسفل ليخبره بأنه خاضع له ومن السهل السيطرة عليه.

فجذب بوكوس يد الملك إلى الأعلى كرد فعل معاكس، كأنه صافح شخصًا لا تربطه معه أية مودة أو علاقة وأفلت يده. وفي هذه اللحظة صرخت الكاهنة ماتيا، قبل أن يطلب أحدهما الآخر للمبارزة:

ـ لا شيء يثير الروح في هذا المكان..

ليضع "هوار بن أوريغ بن برنس" بهدوء يده خلف ظهره بعد أن قرّر الانسحاب، ترك المكان خلفه وهو يطمئن الحاضرين:

-سيكون كل شيء بخير يا ماتيا. ستكون نومينسا بخير يا بوكوس.

لكن نومينسا داهمته بصوتها العالي من الخلف:

ـ أنا بريئة من هذه التهمة ..كلكم تعلمون أنّ عشقي "لأنير" لا بديل له وأنه لي كالماء وبه أحيا. وبغلة القبور من تسمونها " تنكامرت نسمضلن "وتجزمون أنها اصطادت رجالاً من القبيلة ودفنتهم أحياء، هي في الأصل أرملة بائسة وقعت في الحب بعد وفاة زوجها الذي كان يعذبها بالشك لأنها أجمل منه، ذنبها أن لم تدفن نفسها بالحياة بعده ؟؟ فعذبتموها ودعوتم ربكم أن يمسخها جنية في هيئة نصف بغلة ونصف امرأة...

" تنكامرت نسمضلن " أيتها المغلولة، يامن تجر السلاسل وعيونها مشتعلة كفوهة بركان أعرف أنك وحيدة وتنامين كالموتى، إذا التقيتك لن أهرب منك، جسدك الدافئ وضعوا فيه سكينا.

كأن في كلمات "نومينسا" الأخيرة سحر ألقت به على الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" وفي هذا الوقت المتأخر من الليل أعطى أوامره. أشار بيده إليها.

ـ "بوكوس" "ماتِيا" فكّا قيدها. منذ هذه اللحظة "نومينسا" تحت حمايتي، وعليه يمنع عليها الخروج من قصري، وخاصة سلك درب الأحراش إلى المقابر حيث ينام ابني أنير بسلام.

لكنّها تمردت على قراره وفاجأته بشكوكها قائلة ؟!

-أيها الملك أتظن نفسك بطلا مغوارًا بقرارك هذا؟ في آخر هذه القصة أنت شرير. ومَن زرع الموت في طريق حبيبي سأتمكن منه قبل أن تصطاده بغلة القبور التي ستدعونها وقت حروبكم لتقضي على خصومكم، أعلم جيدا أنك كنت منزعجا جدا من حبي له...

هنا تدخل بوكوس ووضع يده على فمها ضم ذراعه الأخرى حول خصرها ليجذبها نحوه بقوة بعد أن قام بسرعة بفك قيود الحبال التي كانت تحيط بيدها وسلاسل الحديد التي تقيد قدميها قائلا:

. الوقت ليس مناسبا الآن اصمتي أرجوك.

-أخبرَني "أنير" الحقيقة قبل أن يُغدر به

همهمت لتخبره بشيء، فوضع يده عن فمها لتقول بصوت خافت:

-هل أخبرك؟

-ليس الآن قلتُ لكِ.

فوضعت نومينسا يدها اليسرى على يد بوكوس الممسكة بخصرها واليمنى على فمه وقالت:

-عِدني وسأصمت

. أعدك..

ثم لاحظا وضعيتهما تلك ليبتعدا بسرعة عن بعضهما.

قام بإنزالها من على جذع النخلة، ممتلئة بالجروح و دامية وتنزف بشدة من أطرافها الأربعة.. فاضطر أن يحملها بين ذراعيه كمن يحمل جثة حبيبته وهو يتألم على حالها. وسار بها إلى القصر، وماتيا الكاهنة من الخلف تردّد وراءهما غناء حزينا:

"حتى وإن عدنا إلى البيت لن يتغير الزمن مادامت الأحجار لا تحس والصراخات لا تخرج من الجدران".

الفصل الثالث

يبدو قصر الملك من بعيد عظيمًا وفخمًا شُيِّد بأسلوب رومانسي. تحيط به حدائق على خلاف بقية القصور الأمازيغية الصغيرة الجرداء المحيطة به أو القريبة منه، والتي هي في الحقيقة مجرد مخازن زراعية، وقلاع دفاعية بوابتها مصنوعة من خشب النخيل توجد داخلها سقيفة طويلة تسمى *سنور تؤدي إلى أرضية مغطاة بقطِيعٍ من الصخور الملساء وتسمى "الصحن" أي الساحة تطل عليها غرف وطوابق تحاصرها.

وقصر "هوار بن أوريغ بن برنس" من شدة فرادته تمرد حتى على طبيعة القصور الأمازيغية الأخرى التي تعكس تناغما وجدانيا عميقا بين الأمازيغ وبيئتهم فهو قائم على أعمدة رخامية لا الحجارة والجبس وخشب النخيل، وأعمدته مزدانة بزخارف فسيفسائية وبوابته محصّنة بقفل حديدي ضخم يحرسه فرسان عيونهم قاسية لا ينظرون باطمئنان لأي غريب يقترب، وقد يفترسون بدون استئذان بأظافرهم الطويلة من يحاول تجاوزهم من دون إذن من الزعيم.

وداخل القصر قاعة استقبال مرتفعة وسط البناء تحت سقفها نقيشة يسيل الدم من حروفها مكتوب عليها هذه الكلمة:

tæmæzIɣt

وفي ساحته المركزية تماثيل فيلة إفريقية بقرون طويلة من العاج تبدو كأنها جُمدت بفعل لعنة ما فمسخت هكذا، أما الشرفات فهي تميزه بنوافذ كثيرة حولها والتي ترتفع وتنخفض حول السقوف الحادة والمفتوحة لتعلو أبراج أربعة تتألف من ثمانية طوابق يربطها سلم حلزوني صلب يتدحرج ويمتد حتى الدهاليز المغلقة تحت قصر الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" الذي استعان بمهندسين من جميع الأمم والحضارات القديمة والجديدة لبنائه أو أنه زار قصور قياصرة الروم ليتأثر بمعمارهم ويخرج عن المألوف.

في نفس هذا المكان نومينسا على قيد الحياة لكنها لا تستطيع أن تضحك أو تبكي تأكل أو ترقص في غيبوبة منهارة وشفاهها يابسة. ليتها تتثاءب كما يتثاءب الناس في فترة الظهيرة.. وبعد مرور وقت قليل نامت لتستيقظ بصحة جيدة لكنها لا تعلم أنها نائمة! ربما تظن أنّه أغمي عليها من الفرح بعد أن تلقتّ خبر وصول رسالة عاطفية من حبيبها إلى قلبها مباشرة فلم تتحمل الصدمة.

الكاهنة "ماتِيا" ترفع ذراعها بلطف، وتمسح أثار تعذيب الحبال والسلاسل التي حُفرت على جلدها بكل قساوة خنادق جروح عميقة. تدلّك ساقها الشفافة كالماء وجميع فقراتها ومفاصلها بمرهم غريبِ اللّونِ مستخرج من أعشاب نادرة. وتتمتم ماتيا بكلمات غير مفهومة ؟!

هل تعدُ نومينسا بوطن شاسع لا تتنفس داخله هواء العبودية؟ وطن يروي عطش الأطفال ويدثر أصابعهم بفؤاده إذا استيقظت؟

بينما هي كذلك فتح الملك باب الغرفة كمن يهجم على حين غرة ودخل عنوة دون استئذان. فسارعت وغطت "نومينسا" حتى لا تشعر بالبرد لكنها في الحقيقة كانت تخفي معالم جسد يبدو أنه ميت ومهيئ للدفن. جسم لطيف طري وناعم.

عبّر الملك عن عدم رضاه واستيائه كأنّه شخص جائع عاد من عمله ولم يجد ما يأكل:

-أيتها الكاهنة.. هل ستستمرين لفترة طويلة في علاجها!! ولمَ هي غارقة في سباتها هكذا؟ هل خاصمت العالم وقررت ألاّ ترى إنسيا أو تكلمه...أين "بوكوس"؟

أشارت "ماتيا" بإصبعها إلى الشباك المستطيل الشكل الذي يطل على الواحة الخلفية للقصر بحذر شديد.

لم يخَف الملك من توجس إشارتها ولم يفكر إن كان بوكوس مع صديق أو عدو، لم يغلق عينيه كطفل مصاب بالكآبة. لم يبق في مكانه ذهب وأطلَّ. رآه يدفن وجهه في عنقها وهي تتلقفهُ بأنفاسها يرسم بإصبعه الأنيق على شعرها الطويل المليء بالأناشيد والبطولات والمسدل على عنقها نجمتين، واحدة لها وواحدة له ثم يقبل أنفها...

لم يسخر الملك من دعوة بوكوس حيوانه للنزهة وتبادلهما الحديث كأنّها يتبادلان القبل.. بل علق مفاخرا بهذه اللحظة

الحميمية بينهما: "إنه لقاء الفارس وفرسه. لكن وجب عليّ الحذر منك فالقادمون من بعيد دموعهم المحطمة تصبح حادة !؟

ثم التفت إلى الكاهنة "ماتيا"، وعاد إلى مكانه قرب الباب قائلاً:

أتركيني مع "نومينسا"

نظرت إليه بتوجس، فأكمل حديثه ليطمئنها:

-أتركي الباب مفتوحا وراءك.

تغيرت ملامح وجه الكاهنة "ماتِيا" ظهر عليها الارتياح.

ورغم هذا غادرت الغرفة على مضض مردّدة وهي تنظر إليها كأنها خائفة أن تضيع بين يديه.

-سأكون قريبة منكما أيها الملك. يجب ألا أبتعد عنها.

بمجرد خروجها، اقترب منها كالأفعى في هدوء حتى لا يوقظها. نومينسا تغط في نوم عميق، جلس على كرسي خشبي بجانب رأسها وأخذ يدندن كأم تغني لطفلها إحدى التهويدات:

"كم كان وقتًا جميلاً

عندما كنت أرى عرسًا على وجهك

ابتسمي حتى ابتسامة باردة

أطرّز منها مصابيح خافتة

لعينك المنطفئة.."

ثم أخذ يعزف في الهواء بيديه كأنّه يحلم، وفجأة أحنى الملك رأسه كمن به خلل غسل دماغه فأصبح مجنونا؟

ظانًا أنه على كرسي اعتراف، أو أنه يكلّم نفسه أمام المرآة.. وبعد أن التفت يمينا وشمالا كالمهرج اقترب من أذني "نومينسا" وبصوت خافت همس:

-ما معنى الحُكم !!!

أجاب وهو يحرّك يديه بطريقة غير مفهومة من أعلى إلى أسفل فوق جسده كأنّه يغسله من العار:

- سؤال لا جواب له.

ثم حكّ رأسه واستدرك:

ـ كل ما أعرفه أنّي الملك، والملوك عندنا يجلسون بعيدا عن شعوبهم؟ ما الفائدة من صراخهم؟ مهمتنا ألا نسمعهم؟

لا فائدة من الصراخ إذا!!

وبعد أن تفقدّ " نومينسا" بعينين زائغتين قال:

- "انهضي، بلا كسل" لكنها لم تجبه. أتعرفين أيتها الحلوة ؟! نحن الملوك عندما نضع رؤوسنا على الوسائد، لا ننام نخاف من شعوبنا.. أن تحلم بالحرية.

وفجأة تحول. لم يعد خائفا بدأت ملامح وجهه تتشكّل بصورة شريرة. وكأنّه استمد ملكه من سلطة سماوية:

وإن ضربت ظهورهم ؟! فهذا من أجل شيء واحد لا أكثر ؟!

أن يصبح الوطن معتقلا لأحلامهم.

اسمع وأطع. من قال أمرهم شورى؟ هذا جنون. كيف يتجرأ أحد من هذه الأمة المضطهدة على اضطهاد ظهوري هكذا؟ وأنا الذي عانيت منذ صغري من عقدة الظّهور لدرجة أنّي خمّنت

مرات أن أخلع فمي وأتكلم لألفت انتباه العالم بأسره. دخل الملك في نوبة بكاء حادة كأنّ الجميع تخلوا عنه وأخذ يترجاها:

-"نومينسا" .. "نومينسا" ..لم تدخل جمرتان من الجحيم في عينيّ. أرجوك لا تخافي مني .. وفجأة انتفض عن الكرسي كأنّ به مسٌّ، وأخذ يضرب رأسه بالحائط خبطة ضخمة كأنّه يريد التخلص من آثار حياته المليئة بالفشل ومحو كل خطوة مكسورة.

-نعم أنا مريض. كنت سأجد متعة كبيرة لو يتداعى كما تتداعى الجدران القديمة لكنه كان لا يُهزم ولا يُجرح لقد فعل ما لم أستطع فعله. حتى وأنا مع المومسات يثرثرن باسمه كثيرا أمامي كنّ يشتهينه.

ثم خفت هوار . كم هو حزين ...

ـ أنا خائف من الغد.. تثير رعبي الشكوك حتى مع من تعود تناول العشاء معي!! وبتهور الملوك أشهر سيفه في وجه "نومينسا" وقد ذبلت ملامح وجهه:

ـ كيف اقتربتِ من قلبي ؟! ثم تمرّد.

ـ لا... لم تفعلي، لا.. لا تفعلي.. من يتقرّب منّي، أحسّ أنّه يريد أن أسلمه مفاتيح "تماجورت" عاصمة مملكتي النوميدية.

أيها الأمازيغ، استريحوا، استريحوا، تماجورت مليئة بالجماجم، سأطرد العصافير منها..

وقبل أن تتوقف نوبات الملك الهستيرية، حصلت جلبة أعادت له رشده!

في الخارج أحدهم يضرب على الطبل الكبير المصنوع من أشجار السدر. وقرع الطبول عند الأمازيغ نذير حرب أو دعوة للتجمع للبحث في أمر سيء أو لحدث جلل يبحث عن أجوبة.

وضع الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" يده على مقبض سيفه وهو من أثقل السيوف يبلغ طوله مئة وخمسة عشر سنتمترا وطول نصله مئة سنتمتر وقال:

-أعلم أنه أنت "يا بوكوس" وستغرق في عاصفتك الرّملية أيها المتهور.

وقبل أن يغادر تأمل جسد "نومينسا" التي بدت كأنها على نقالة موتى لا حياة فيها.. وقال وعيناه تتأملانها بشهوة.

-أنتِ لي...من أخمص قدميك حتى أعلى خصلة في شعرك.

صفق الباب وخرج يمشي في هدوء لا تكاد رجلاه تلامسان الأرض. وبالفعل كان بوكوس يضرب الطبل بعنف وشعر صدره العاري يرقص منفلتًا في الهواء ..

اجتمع حوله سكان المملكة. كان البعض منهم قد خرج شاهرًا سيفه ظانًا أنها حالة حرب وأن الرومان عادوا، ومنهم من أصابته الدهشة لا يصدق ما تراه عيناه:

-هل هذا "بوكوس " أم شبحه.!!

فسكان المملكة يعتقدون أن هذا الفارس الشجاع أُسر في المعركة التي أحدثت ضجة كبرى، والتي ستتغنى بها الجدات في ليالي الشتاء الطويلة وهن يهززن رؤوسهن بفخر، وتتناقلها الأجيال لمئات السنين بحروف العزة احتفاء بذكرى تطهير أرض

الأمازيغ الجنوبية من الأقدام الهمجية لروما البربرية. روما المتوحشة النرجسية التي عادت من حيث أتت مدحورة ومطرودة. لم تعد أرض الأمازيغ اليوم مكفّنة بصورها الملونة بدمهم.

توقف "بوكوس" عن القرع وسكن، رفع يديه إلى السماء كأنه يريد أن يطاول عنقها من فوق الجبل، ثم غيّر اتجاهها نحو أعيان وحكماء المملكة وقال مخاطبا إياهم:

- أيها الأسياد، أقسى شيء أن تُطعن الرجال من الخلف وما أشدها من طعنة.. الطعنة التي تأتي من الشخص الذي حاولت أن تحرره من قفص الأسر. أن يخون من وضعتموه في فم بابكم. من نصّبتموه ملكا عليكم وعلى الجيش.

"هوار بن أوريغ بن برنس" حاول أن يبعثر، انتصار جيشنا النوميدي.. التقى مع قياصرة روما. هل أعلمكم بهذا النبأ العظيم !!!

ـ اصمت أيها الجاسوس رد عليه الملك "هوار" بلا مقدمات وهو يبعد الأجسام المتجاورة بجانب بعضها كأنّها دمى بالية وقعت في حقل ألغامه وأخذت تتساقط أمامه، كالرمح مسرعا يريد أن ينغرس في جسد بوكوس.

-أخبرهم أنت لماذا أطلق الرومان سراحك وحافظوا على دمك دون أن يمسوا شعرة منك تذكرني عودتك بفلسفة الثعبان الذي حمى العصفور. قالها الملك ساخرًا، هكذا بلا عملية تبادل للأسرى أطلقوا سراحك؟ اذهب أنت من الطلقاء ما

أحلمهم! أبلغ هذا لمن ارسلوك إلينا لتغتسل النظرات كحيوان الوزغ الجبان على الحائط وراء الأبواب. لن تشعلنا من الداخل يا بوكوس ولن نطارد أنفسنا فتتمزق رسائل السلم التي جمعت شعبي. لا تتوقع منّا أن نطلب بعضنا للمبارزة أو نضع سيوفنا على أعناقنا، خناجرنا فقط تغوص في لحم عدونا ..

يا أيها الجاسوس لن نفقأ أعيننا بأيدينا مثلما تريد حتى لا ننظر إلى الأفق، إلى سفن روما القادمة كسمكة قرش مريعة لتحمل جثثنا. روما لن تعود...روما لن تعود ولن يقال عن تماجورت عاصمة مملكة الأمازيغ النوميدية كما قيل عن قرت حدشت ..كانت أيضا قرطاج...

من وسط الجموع هتفت "لاميا":

-لن نجعل من انتصارنا خسارة ولن نمد أيدينا إلى كفننا سنتصدى للشياطين ولبغلة القبور ..

وردّدت الجماهير وراءها لن تسقط نوميديا إلاّ إذا مات جميع الأمازيغ لن نترك لهم الفرصة لن نجعل من انتصاراتنا خسارة ونحمل أنفسنا بأيدينا إلى التهلكة كلام الملك واضح. هذا ما تبحث عنه معابد روما، تشتيت أجزاء جسدنا ومن ثم ذبحه باسم المقدس.

-كفى ضجيجًا وصياحًا أنا لست من كوكب آخر أنا من نفس خندقكم ؟! قال "بوكوس "

-كلامي موجه إلى التيديت السادة الاثني عشر. صحيح أن "هوار بن أوريغ بن برنس " هو الجهة العليا في المملكة ولا يصادر له

قرار وكلمته سواء كانت عادلة أم لا، تُنفَّذ. لكن.. أنتم أيضا كبار.. القوةُ النّائمة التي لا تفتح عينيها إلا في الحق. زكّى مجلسكم كل الأمازيغ بأفخاذهم المختلفة لأنكم أبناء الآلهة الطيبة. رائحتكم ليست عادية... أنتم لا تدعون التوبة وتخفون الشيطان داخلكم. نظرتكم إلى الحياة مختلفة تختارون الأشياء من أعماقها، ولهذا أجاز لكم شعبنا مباركة ملكهم،

إذا كان يحس بالجائعين، مدفئة في الشتاء للمشردين، ويفتح الماء لنا لنشرب. من يمشي معنا إلى الحرب.. ولا يقول لست ملككم في هذا الزّمن اللّعين ويهرب. أمّا إذا ..

تغيرت ملامح بوكوس، تجهّم وجهه. عبس ثم واصل كلامه قائلا:

-إذا كان.. يزور أعداءنا بعد منتصف الليل. فهذا يعني أن "هوار بن أوريغ بن برنس" " خائن "! وهنا، هنا يحق لكم عزله، و أعلم أن مجلسكم لن يسمح له أو لغيره بأن ينجو بعد هذا الفعل الشنيع الذي قد يؤدي لابتلاع حضارتنا واندثارها، الرومان أهل حضارة لكنهم يزورون التّاريخ، سيحرقون نوميديا ولن يتركوا لنا أثرا.

حققوا العدالة قبل أن..! ولا تبقوا مكتوفي الأيدي! أخبروني بحق ما تعبدون ؟!

أنا لا أفهم كيف تفكرون أيها الأمازيغ ؟! ما الفائدة من حكم ملك يعتبر تحالفه مع أعداء شعبه سياسة تجلب لهم الحرية ؟!

أرجوكم اسمعوني ولا تصدقوا كل ما يقال عنّي.. فهؤلاء الذي يكرهونني لن يتركوا لي فرصة للحياة وسيقولون كما قال بأنّي جاسوس ووو.. وتلك التّهم التي تلتصق دائما بالأحرار.

صمت بوكوس هنا كأنه فقد القدرة على الكلام ؟!

وفجأة ارتفع صوته بغضب شديد موجها كلامه لسادة الاثني عشر قائلاً:

ـ أنا لست جاسوسا ... في المعركة الكبرى بعد أن عينني القائد "أنير" على رأس كتيبة مؤلفة من ألف فارس. قسمتها لخمسة كراديس كان مهمتنا الوحيدة، أن نراقب المعركة من بعيد ولا نتدخل إلا إذا اخترقت كتائب الرومان قلب جيشنا لا يجب أن نسمح لهم بأن يطوّقونا...استبسلنا في القتال، وحين طوّق الرومان في بداية المعركة كامل جيشنا من الميمنة والميسرة واقتربوا كثيرا من خيمة القائد

أعطيت الأوامر بالتدخل وظللنا مستبسلين في القتال.. قاتل فرساني قتال الأفذاذ ومنعوا الاختراق بأجسادهم.

صهيل خيولٍ، وصليل سيوفٍ مخيف لا أصابع هنا للمداعبة كلها تصلح للقتل. عدد مقاتليهم يفوقنا عدة وعتادا، تقريبا سنخسر المعركة. الكثرة تغلب الشجاعة!!!! تبا لهم ما أكثرهم وهم يتشبثون بجسد جيشنا مثلما يتشبث المغتصب بجسد ضحيته وهو يثبته.

لم آت هنا.. لأقوم بنزهة في الغابة! نزلت من على فرسي، ودعته إلى الأبد، خلعت عنّي الحياة وذهبت للموت. بصراحة، لم أفكر

كجندي جبان ولم أنظر بدهشة وخوف إلى ما أنا بصدد القيام به من تضحية. حملتُ وحدي على كتيبة رومانية كاملة، شققت صفوفهم جاوزتهم، ولم أكن أتألم وأنا أطعن...

كانت رائحة جسدي تفوح بالحياة والموت كل من يقترب مني كان يموت. لقد قمت بالمستحيل! فتحت ثغرة خفية على طرف جيشهم الأيسر، الذي انهار بين يدي مال وانكسر يسارا ومن ثم يمينا... فعلت بهم حريتي ذلك! .

والتفاصيل؟!! لكنني خبأتها بهدوء وطويتها ورقة إثر ورقة في داخلي حتى لا تسقط عندهم أسرار جيشنا. لم أخف من أفواههم التي لا تمتنع عن ذكر اسم موتي الذي هددوني به ؟! سيطلقونه علي ليفترسني إن لم أتكلم. بقيت أسرار شعبي تنتفض في قاع صمتي تنتفض لم يسمعوا منّي إلا صوت نشيدي الجبار هذا:

"أمازيغيتي

طبيعتها قاسية

موتوا من الجوع داخلها

وسنخرج لكم من أعماقها

لندفنكم.."

ويا سادة الأمازيغ :

حينها قرروا الانتقام منّي، جعلوني في حكم المنقاد!

قادوني إلى حياة مفعمة بأشياء لا تقتلُ.. لكنها جعلتني أدعو يا ليت الطوفان يقتحمُها ويقتلني! قاموا بتصغير شأني وإذلالي!

باعوني في سوق النخاسة بثمن بخس لتاجر أرستقراطي في روما، وداخل قصره ما أفظع الخراب الذي حل بي! تحوّلت من فارس إلى عبد! أصبحت لا أصلح إلا للرعي والصَّرِ وحمل الاثقال!!!

قضيت سنة كاملة مع العبيد داخل القصر كمرمي في أعماق بئر ودماغي تؤلمني من القهر لأني لم أستطع أن أرمي الماضي ورائي. منعتني قيودي الثقيلة من الفرار أو حتى مجرد النظر إلى النّوافذ!! كنت حزينا جدا لدرجة لا أستطيع النظر فيها إلى نفسي بسبب هبوط همتي ؟!

لقد أطفأوا حياتي بهذا السّكين البارد الذي غرسوه في قلبي!

كان مصدر سعادتي الوحيد هو تذكر تفاصيل حياتي القديمة داخل "تماجورت" ؟! كم كنت محتاجًا يومها وأنا أرتدي كنزة رثة ومعطفا قصيرا إلى برنس أمازيغي حار! يقيني سخط بردهم القارس! أو *تقاشبيت[8] أمازيغية تدفئني، مثلما كانت تفعل عندما كنت أجوب هضابنا العليا كطائر يطير وراع يغني، ليسخر دفء دمها الجنوبي المشمس من وجه روما الشاحب وثوبها البارد الذي ترتديه ليجمدها. اشتقت إلى العمامة الأمازيغية والخنجر! والشكارة التي يعلقها الفلاحون على خاصراتهم! وإلى تلك الزرابي الفريدة التي كنت أنام عليها في صغري فأحلم بزهرة تنبت على جسدي أقطفها وأهديها لحبيبتي؟

[8]لباس أمازيغي أصيل من الصوف أو وبر الجمال يكسو الجسد من أعلى الرأس إلى القدمين .إرتدى الأمازيغ التقاشبيت لمقاومة البرد القارس في الشّتاء.

اشتقت إلى "الشلحة[9]" لهجتنا الأمازيغية إلى كل أكلاتنا "الكسكسي[10] " "الزميط[11]" و"الببوش[12]" و"الترفاس[13]" و"البسباس" و"اليازول". إلى أهازيج الأعراس التي تتغنى بعودة الفارس إلى الديار سالماً، بعد أن حفر جدران قبرٍ من أراد أن يسلبه وطنه. اشتقت إلى أن يناديني أحدهم بكنيتي الحقيقية ب " الرجل الحر" أي الأمازيغي، كم كرهت ذلك المكان وكلمة العبد هناك.

إلى أن تفطنتْ فتاة جميلة اسمها مانويلا رأسها مكلل بتاج، يدمر لطفها توحش الأرض التي تمشي عليها، إليّ...؟

وقبل أن يكمل بوكوس حديثه عن الجميلة الرومانية "مانويلا"، وعلاقتها بفراره من القصر، قاطعه الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" ساخرًا من شكواه:

- العبد بوكوس. هل وقفت هنا لتحدثنا عن عبوديتك ولتسجل اسمك في قائمة العبيد؟

---

[9]الشلحة : واحدة من اللهجات الأمازيغية

[10]الكسكسي : أكلة أمازيغية تصنع من طحين القمح أو الذرة

[11] الزميط أكلة أمازيغية تسمى "تازميط " وهو طعام يتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير يحد من غائلة العطش.

[12]الببوش : طبق من الحلزون يتقنه أهل شمال إفريقيا يغسلونه عدة مرات بالخل والماء، إلى أن يصبح الماء صافيًا، ونضعه في قدر، ثم يغطى بالماء ويوضع على النار، وتضاف إ إليه أعشاب معينة توابل والملح، ويترك على نار هادئة لمدة ساعة ونصف إلى ساعتين، وبعد أن ينضج يقدم ساخنًا مع الحساء.

[13]اليازول : نبات يتناوله سكان شمال إفريقيا خاصة في الشتاء لمقاومته نزلة البرد وأمراض التنفس .

إنفجر جميع سكان المملكة ضحكا من تهكم الملك. الذي أشار إليهم بيده أن اصمتوا.. فصمت الجميع. وقال:

-لا أحب أن أقول هذا! لست بأفضلكم لكنّني في الحقيقة ملك. كنت أستطيع أن أزين رأسي كما يفعل الملوك وأنام على القطن وأمشي بينكم كالطاووس. لكنّي اخترت أن أكون مع الفلاحين في الحقول أزرع القمح وآكل معهم الكسرة. أبني معكم بيوتكم وأغطي سقفها من المطر.

وبعد كل هذا، يأتي هذا الجاسوس ويطعن في ولائي لشعبي! أنا لا أشرب على نخب القياصرة وإن أجبروني، أضع سما في كأسي الذي أشربه معهم.. لا أعرف بماذا سأغتسل حينها إذا جلبت العار لشعبي وسقطت في حضن عدوي ليفترسني !؟ هل يعقل أن أجلب المآسي لقصري وأفرح بقدوم الوحوش الذين يأكلون قلوب الأطفال ؟! وأرقص معهم فوق جثث شعبي ؟!

ردّد كبير مجلس الجماعة الاثني عشر "أمسناو":

-يحيا الملك "هوار بن أوريغ بن برنس"

ليرد عليه "تيديت" آخر من المجلس يدعى أمزيان:

ـ بعد إذن الملك، لا تتطاول وإلا طالتك السيوف، أنت تثرثر كثيرا كالنّساء، كلامك مزعج كصوت الذباب، قل كلاما يجمعنا.. أو اصمت.

ردّ بوكوس ببرودة أعصاب:

-قبل أن تقتلوني، متى يحق لي الكلام وإزاحة الغشاء عن أعينكم؟

أجابه "امسناو" كبير مجلس الجماعة قائلا:

-بعد ثلاثة أشهر قمرية أمازيغية سيجتمع المجلس. إما أن تثبت ما قلته وإلا تقتلُ.

-نعم .. ستقتلُ قريبا أيها الجاسوس. قال الملك "هوار بن أوريغ بن برنس"، ثم أمر الجميع بالانصراف والعودة إلى مشاغلهم.

الفصل الرابع

داخل قصر الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" استيقظت نومينسا فجأة وهي تنتفض مرتعدة كأنها عادت من الموت أو رأت شيئا جائعا كان يلاحقها وكاد يمزقها! خائفة من شيء ما، تتنفس بسرعة وركبتاها ترتعشان...ماذا حل بها؟ هل رأت حلما موحشا ولم تستطع بعدها أن تغمض عينيها ؟!

الكاهنة "ماتيا" تضمها إليها:

-أنا معك معك.. أنت لست وحدك

هذه الأيام أطوارها غريبة لكن.. لا تخافي ليست هذه النّهاية ؟!

هذا الوقت سيمضي أنت أقوى من هذا كله لا تنظري لأظافره الطويلة وعينيه القاسيتين، لا تفكري بقلق هناك وقت للقبلات ولأشرعة العشاق بعيدا عن الفظائع المنتشرة والدنيا الموشكة على البكاء. أنا أدرك ما لا تدركه الأبصار العادية! لكنّ نومينسا دفعتها مهدّدة:

ـ إياك أن تقتربي منّي. ابتعدي عنّي أيتها العجوز. يلتهم شر وجوهكم غيمة. ارحلوا عن سمائي! وسأبقى صافية. لا تلعبي معي كالأطفال. لا تخدعيني بكلامك! أعلم.. ستقولين لي إني سأتنفس، لكن لعبة الموت فقط التي تتبدل! وكل مرة تقطفني سكين!

أنسيت أنك أشرت لهم قائلة:

-اتركوها هذه الليلة هنا أتركوا نومينسا في العراء، أغلقوا فمها ولا تدعوها تتكلم أو تمشي، ملعونة لا تستحق الحياة قد تأكلكم !؟

لا...لن يلين قلبي، قلبي أصبح حديدا! أتركوني وحدي!

لأنني لم أستطع أن أفعل شيئا تآمر عليّ الجميع .. لن أغفر لكم جميعا اتهامي بأنّي بغلة قبور!!!! البغلة تسهرُ كثيرا لتصطاد الرجال. تحب صراخهم تحت أظافرها، ألا تعلمون أنّ الميت إذا تخلى عنه الأحياء، يتقلّب بعنف في قبره !!

الظلام هو النّسيان. ولهذا لن أصدق أنّ حبيبي ميت! أين وصيته ؟؛

أصابت نومينسا موجة ضحك هستيرية فأمسكت بوجه ماتيا وقربته منها قائلة:

-ألا تعلمون أنّي وعدته ألا أتركه للنسيان!!

ثم ترقرقت الدموع من عينيها. فأمسكتها "ماتِيا" من يديها وهمست في أذنها:

-ألا تريدين معرفة ماذا قال "أنير" لبوكوس!!!

كأن هاتين الكلمتين رنتا في أذن نومينسا كالأجراس التي تدق في الأعياد.

-نعم نعم قولي لي أريد أن أعرف. قالت نومينسا وعيناها تشعان بالحياة.

أجابتها الكاهنة "ماتِيا":

-قبل كل شيء يجب أن يعلم الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" أنك استيقظت من غيبوبتك. الأمر الثاني كوني لطيفة معه عندما يأتي للاطمئنان عليك. ضميه بخوف لينظر إليك بمبالاة، قولي له:

-أنا لست وحشا لدي قلب! الحراس حول غرفتي مجرد فزاعات تنتهك خصوصيتي لا أستطيع الأكل أو الشرب والتنفس وسوف يبعدهم في الحال، حتى لا يخيفوك.

بعدها في منتصف الليل سآتي الى غرفتك وأخرجك من القصر. وعند الكثيب الأحمر ستجدين بوكوس ينتظرك، لكن تذكري جيدا، يجب أن تعودي قبل حلول الفجر.

أكملت الكاهنة "ماتيا" سرد خطتها على نومينسا ثم غادرت الغرفة وعلى وجهها علامات الاطمئنان وهمهمت قائلة:

أنا أدرك ما لا تدركه الحواس العادية. كانت عينا نومينسا تلمعان وهي تودعها.

بأمر من الملك انفضّ الجميع من حول بوكوس إلا واحدا من الجماعة الاثني عشر اقترب منه،"أمدياز" الملّقب بالفيل لضخامة جثته. تبسّم بخبث فبانت أسنانه التي تشبه أسنان الأرنب، وانفرجت أساريره فبدت شفتاه الرقيقتان كخط مستقيم تماهت مع ذقن عريضة جرداء إلا من بعض شعيرات توزعت هنا وهناك، زاد من قبحهما أنف طويل معقوف في

نهايته، ابتلع ريقه المتدفق ومسح لعابه مطلقًا ضحكة جوفاء وهو يقول:

ـ أخبرني عن "مانويلا" أكمل قصتك العذبة أرجوك. كيف ساعدتك تلك الزهرة الصغيرة على الفرار من ذلك القصر الكبير أنا متشوق للغاية.. هل غمرتك بحنانها؟

هل زرعتَ قبلاتك في كل شبر من مساحة وجهها. أعلم أنك تجيد فن الإغواء أخبرني كيف فعلت ذلك! فأجابه بوكوس قائلا كأنه يشاهد كل نقاط ضعفه:

ـ الموقر "أمدياز"، ما رأيك لو أصبحت أنت ملكا؟ أعتقد حينها أن كل الحسناوات ومفاتنهن، حافية القدمين، درماء الكعبين، زجّاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شمّاء العرنين، شنباء الثغر ....

فيُثار التيديت "أمدياز" بعد سماعه كل هذه الأحلام تنساب من فم بوكوس فيقاطعه بعد أن قادته البهيمة وأخرج لسانه كالكلب لاهثًا:

-أريدهن لي كلهن، كلهن "يا بوكوس.

لكنه استدرك قائلا، وعلامات الضيق الشديد والأسى بادية عليه:

-ليتني كنت ملكا يا بوكوس! أنا لست ملكا!!

التفّ حوله بوكوس كالأفعى وتكلّم بكلّ تؤدة ودهاء:

-يا سيد أمدياز، ألست من السادة الاثني عشر الذين عينوا "هوار بن أوريغ بن برنس" ملكًا على مملكة نوميديا وعاصمتها "تماجورت؟

ارتسمت ملامح الحسرة على وجه أمدياز وأجاب ساخطًا:

-لكنك تعلم يا بوكوس أن التيديت محرومون من الحياة. التبتل يعني دائمًا الإخلاص للعروس الواحدة "الأرض" والحرمان من العاطفة وعدم الزواج. إن معاناتنا مدمرة.. يا ليت الأمازيغ يتخلون عن هذه العادات، وينظرون إلينا كبشر!! نحن لا نرتدي جلود حيوانات شعثاء!! لماذا نجبر على النوم وحيدين في الليل؟! مستبعدين منفيين في كهف من أجل الاهتمام بأبديتنا، ولا يحق لنا الاختلاط بالناس إلا تحت ضوء الشمس.

هذا المجلس يا بوكوس يغلق في وجوهنا نوافذ الحياة، ويفتح أبواب التّعاسة سحقًا لما تقره شرائعه.

أكمل التيديت أمدياز كلامه ثم طأطأ رأسه وقال بهدوء:

-أتركني يا بوكوس.. دع جسدي يقتلني في هدوء...

ككلّ الذين يستغلون تعب الإنسان ويهدونه وهمًا أو موتا حقيقيًا، قال بوكوس متحايلاً:

-أمدياز هل تعلم أنك إذا تمكنت من أن تصبح حاكما بحق الإله ستحّرر التيديت من أساطير الأولين، وستصبح المرأة أرضًا والأرض امرأة، ويندمج الإنسان فيك مع الطبيعة وتتزوج. وربما تلمس "مانويلا" جسدك العاري وتهبك نهرًا من القبل، أيها التيديت المسكين قالها ساخرًا.

رد أمدياز السخرية بالسخرية وقد استرد وجهه بعد أن كان يتحدث عن حياة جماعة المجلس الاثني عشر التيديت وكأنه يتحدث عن الجماجم والتوابيت ويصف متاحف لعرض الجثث لا صور الأحياء. فقال مفتخرا:

ـ قبل أن يقطع شعبنا الأمازيغي يد السفاح الذي كان يختلس أوراق زيتوننا في الليل وقبل أن تعود النضارة لأشجارنا، قبل المعركة الكبرى، وقبل هروب القتلة الرومان المغتصبين أنت يا بوكوس قالها مُخوِّنا:

كنت تنتظر كل صباح خروجي من الكهف لتسخر من "التيديت" وتبتُّلهم الحكيم، بأقداح خيانتك المليئة باللذة والنّساء، وبقصص مغامرتك الحسّية في ديار الرومان الذين غمروا جسدك بمائهم المقدس ورائحتك بدماء شعبك.

ألست تعلم أنهم أرغمونا على الهروب إلى الجبال لنحفر قبورا نحتمي فيها وندفن أنفسنا داخلها. رد عليه بوكوس الكلام بعد أن تنفّس ومد نَفَسه في همس رقيق قال ودفوف صوته تهتف:

ـ نعم أعلم، وتعميدي بالماء المقدس لا يعني ترك شعبي وعدم ركوب حصاني. ونظر إلى الأفق وأطلق حكمة من فمه:

"المعتقد هو الانتماء ومن خان عرقه خان معتقده"

وأغمض عينيه في هدوء وحزنٍ وقال لأمدياز:

انظر ماذا رسمت خناجر السيوف، غاصت عميقا تحت جلدي وتركت أظافرها خدوشا وأخاديد في كل موضع من جسدي.

فقال أمدياز :

ـ لا لن أنظر لا تحاول أن تدعي البطولة أمامي يا بوكوس. أنت لم تهتم أبدا بتفاصيل قضيتنا ولا بسكاكين وقيود الرومان وهي تشبك أيدينا خلف ظهورنا وتأخذ منا نصف الرغيف. من الذي ثار على من قيدونا وأسرونا؟ وعلى من أخذوا أنفاسنا وخنقونا حتى الموت؟ من حررنا مما نخاف؟؟ إنّه أنير صاحب اللغة الثائرة.

ـ من قلت؟ إنه لن يحاصر أسوار روما وإنّ معاركه الصغيرة تبيع أوهام النصر للمساكين ولمنكسري القلوب وللمأسورين التّواقين للحرية. لكن شجاعته هزمت جبنك يا بوكوس، وفعلت المستحيل، وحّدت القبائل الأمازيغية.

وأنت ماذا فعلت!!! ضربت الطبل وجمعتنا لتجني ثمار الثورة التي قام بها ودفع حياته ثمنا لها غدرا! أنت لم تشارك إلا في المعركة الكبرى. معركة واحدة يا بوكوس. قالها أمدياز مستهزئا.

لم يرد بوكوس هذه المرة على استفزازات التيديت وقال:

ـ سيد أمدياز ما جئت هذه المرة لأحدثك عني أو لأحدثك كالعاشق عن القبلات. هذه المرة لستُ الرجل السيء الذي لا يكترث بالتبتل "وبالتيديت"، جئت وفي يدي عشبة سحرية.. علاجا ناعما ودافئا سيحل جميع مشاكلك ويبعد عنك رائحة الموتى ويفك جميع أسئلتك المعقدة عن الشهوة الواسعة التي تنتحب بانفطار داخلك. إن اتبعتني لن تضطر أن تخفي شيئا بعد اليوم بل ستكون أنت، أنت. لن أفرض عليك أسلوبًا وأصفد

لسانك. من حقك يا أمدياز أن تغمض عينيك، لكن دع شرفة الحياة مفتوحة، لا تنظر لهذا العالم من ثقب ضيق وكأن عينيك مفقوءتان.

من "تيديت" وحيد يعيش في كهف معتم على قمة الجبل إلى ملك ينظر بشراهة إلى الأفق، ويمتلئ قصره بالحياة. عوض أن تتسلى بقتل نفسك ستجرب وأنت ملك قبلات جديدة ونزهات.

أنا هنا يا أمدياز لأحرّر عواطفك المتناقضة. قال بوكوس وهو يصرخ كأنّه يطلب النّجاة للتيديت:

ـ الأرض التي تزوجتها سرير تنام فوقه امرأة ميتة. أُصحُ! أُصحُ يا أمدياز ألا تفهم؟ لن يحس بك التراب الذي تمشي فوقه بل سَتَتَنَشَّق الغبار الأسود الذي يفرزه. حقق أحلامك دع امرأة تنفضُ على فراش نومك جسدها النّاعم ...

ومن شدّة تأثُّر أمدياز بسُمّ بوكوس ومن دون تفكير انطلق لسانه بالكلام:

-نعم سأصبح ملكًا، كرهت تعفّن هذه الأسئلة تحت لساني!!! كرهتُ لا تفعل!! كرهتُ لا يمكنك ذلك !! ولكنّه جبُنَ واستدرك قائلاً:

-لا، لا يمكن مستحيل، لعن الله إغواءك لي يا بوكوس. التيديت الوحيد المخوّل له أن يصبح ملكا هو كبير مجلس الجماعة الاثني عشر "أمسناو" وفي حالة واحدة، موت هوار بن أوريغ بن برنس. هنا.. بسرعة فائقة تكلّم بوكوس ليزيل نهائيا ارتباك أمدياز :

-سنسرق حياتهما الإثنين معًا، وستصبح أنت الحاكم بحق إلاهي، وحينها يمكن لك حل مجلس جماعة الاثني عشر "التيديت" وكل شيء تريده سيصبح لك.

على إثر هذا الكلام الخطير الذي يدعو الى الموت والسلطة. وضع أمدياز يده على فمه وعيناه تلمعان كالأطفال وقال لبوكوس بصوت خافت يدل على الجبن، بعد أن تلّفت خائفا و كأنّه سارق:

-هل قلت هذا الكلام لي فقط!! وماذا تقصد بالحاكم بحق الاله!

ابتسم بوكوس بخبث وتنهّد بارتياح. وقال في نفسه مازالت خطوة وألتهم هذا الأحمق الشهواني. مشى خطوتين إلى الأمام وقال:

-أيها التيديت المسكين هل تعرف معنى الزمن!! لن تعرف ولا تُمأمئ، سأجيبك عن أسئلتك وأجيب عن سؤالي.

الزمن، أمثالك من الطيبين لم يتلوثوا به، لأنهم من الداخل أشدّ اخضرارا من الأشجار وعزلتك بعيدا عنه تعني أنك ترفض أن تمدّ يدك لتشعل هذا العالم. هذا جيدٌ سيد أمدياز ولكنّي أعلم بأنّك تحسُّ أنّك تبدو قديمًا والعالم يتقدم، وأن لا أحد يسأل عنك داخل المملكة ويقول مثلاً: "لماذا يبدو التيديت أقلّ فرحا منّا."

أصغ جيدًا، لن يهتم الأمازيغ بمكانتكم يا أمدياز لأنّكم ترتدون برانيس مثلهم منسوجة من الصوف رؤوسها ملصقة بها.

أين خيالكم يا تيديت! أنظروا إلى قصر "هوار بن أوريغ بن برنس وستفهمون لماذا هو ملك.. ملك لأنه مختلف رغم أنّ جسده من الداخل قذر. أنا لا أفهم حتى ماذا تعبدون؟ الشمس أم القمر؟
أغضب كلام بوكوس أمدياز فقاطعه متهكمًا:
-عدت لتسخر مرة أخرى من عادات التيديت.. لن تتغير غمّسُوك في مائهم لتتآمر على إيماننا.
ردّ عليه بوكوس:
ـ دعني أكمل كلامي إلى الآخر يا أمدياز وإن لم يعجبك سأذهب وحدي إلى الهاوية وأريح عالمك الجامد من شر تغييري، بعد فراري من الأسر والعبودية مررت في طريق عودتي إلى "تماجورت" بأوطان غريبة، نعم رأيت شعوبا مثلنا تعبد القمر لكني لم أر "تيديت" متناقضين ومترددين مثلكم؟ ومعتقدات أسوأ من معتقداتكم. مكوثكم في الكهوف يا أمدياز. تبتّلكم وابتعادكم عن الحياة يدلّ على أنكم مثلي مسيحيون ومثلما تقول عنّي سأقول عنكم أيضا
كأنكم مغمّسون بالماء المقدس على دين أعدائكم الرومان.
في المسيحية يعيش الراهب كالتيديت عند الأمازيغ، في صومعته متعبدا بعيدا عن عيون الناس متبتلا وقد أنهكته العبادة مثلكم.
مازال كلام بوكوس يتشابك ويفترق يميل يسارا ويمينا راسمًا صورًا سيئة عن "التيديت". يمقتها وجه أمدياز القائل:
-الليل هناك مليء بالكوابيس وبالجثث لا يوجد شيء داخل الكهف لأرتبه غير الرعب. أتوسد خوفي وحيدا، ويداي تحيطان

كل ليلة بقاتل يعانقني. فهم بوكوس جيدا أعماق التيديت وعلى أثر كلامه قال له معاتبا:

-ألم أقل لك لا تقاطعني. ثق بي، يداي ليستا قاسيتين. أنا من سيخرجك من هذه المدن البائدة، ثم وضعهما على كتفيه قائلا:

-لا تنظر إلى تلك التماثيل المرعبة التي زرعوها حولك، لا يمكن أن يورق قلبها، لن يُنْبِتَ تُرابها الأعشاب أو النبات.

بعثرْ أفكار هذا الكهف وطرْ من قفصه يا أمدياز.

بعد هذا التوتر وبعد أن كاد بوكوس أن يمزق لحم كتفي أمدياز بأظافره سحب يديه وانحنى كيمامة أمامه وحيّاه. ثم في هدوء تام، همس في أذنيه وهو يعلم أنّه يضع إصبعه على جرحه عميقًا وقال:

-أتفهَّمُ خوفك وأعرف أنهم منعوا عنك الرغبات، وأغلقوا عينيك بعينيك حتى تتعلّم كيف تتألم ولا تنتفض إلا في قاع صمتك، ولهذا أنت مختلف عن الفطرة العادية لأنك لم تعرف أكاذيب هذا العالم.

أمدياز ينقصك شيء واحد لتصبح "الحاكم بحق إلهي". سأعلمك أيها الطفل كيف تكتشف عينيك وأنت تفتحها بأصابعك وكيف تمشي من جديد. أنهِ الآن طريق تأملك، لا تهضم أوجاع هذا العالم مذهولا في دهشة!!

الآن.. العالم في أمس الحاجة لشخص يحكم باسم السماء!

ومن منك أقرب إلى السّماء أيها التيديت فيتحدث باسمها.

كادتِ الشمسُ أن تغيب ولم يتفطن بوكوس ولا التيديت لها. رغم أن الذي يشاهد حوارهما من بعيد يراهما ينظران إلى الأعلى تارة وتارة أخرى إلى الأسفل، يتحدثان دونما توقف برغبة واندفاع، يضمان أصابعها يطلقان أيديهما، يبتعدان عن بعض و يقتربان، يدوران.. ويخمنان كأنّهما سيحلان مشاكل هذا العالم. لقد فعلا كل شيء إلا أن يفارق أحدهما الآخر، لولا سماعهما صوت الكاهنة ماتيا من بعيد قائلا:

حذار أن تضيعَ أيها التيديت، حين يغيب قرص الشمس خلف الجبل ضع خنجرا في قلبك قبل أن يراك أحد من سكان المملكة. وقبل أن تتم "ماتيا" نداءها، كان أمدياز يركض كالمجنون هاربًا إلى الجبل، ليختبئ في الكهف ويتبتل في الظلام، فأي تيديت يخالف شرائع الأمازيغ، ويظهر للناس أو حتى يقول كلمة بعد غروب الشمس يُقتل.

صعد التيديتُ الجبل واختفى. أخذت الكاهنة "ماتيا" مكانه بجانب بوكوس وأخبرته بتفاصيل لقائه مع نومينسا .

الفصل الخامس

وصل التيديت إلى الكهف لكنه هذه اللّيلة لم يجرؤ على دخول أعماق المغارة السّوداء. قال بتعاسة:

ـ من أين جاءت هذه الحفرة ومن أقفل عليّ داخلها! كنت أحلم بالعصافير، لم أحلم يوما وأنا صغير بوجه هذا الكهف القبيح الذي لا تدخله الفراشات أو الهواء. والتفت إلى قصر "الملك هوار بن أوريغ بن برنس". سأل نفسه سؤالا يقصم الظهر!!!

-إلى متى وأنا أشعل المشاعل لغيري فيصبحوا ملوكا!!!

ثم استدار وركض مسرعا، اختبأ وراء الصخرة الكبيرة المحاذية للكهف، وفي الممر الضيق خلفها، أخذ أمدياز يعض شفتيه بمقدمة أسنانه الكبيرة التي تشبه أسنان الأرنب، ويلصقهما ببعضهما بأصابعه الغليظة بطريقة شاذة ولعابه يتطاير:

-لماذا أنا مكتوف اليدين، وجسدي مملوء بالرّغبة! لمَ لا يقول لي وجه نقي كلمة أحبك؟ فيتحرّر جسدي من هذه التجربة الروحية التي ورطت أحاسيسي داخلها. ثم أخذته تخيلاته إلى استثارة عارمة، فألقى بنفسه على التراب وقال وهو يتمرغ فوقه:

-عندما أصبح ملكا لن أظل جائعا، ولن أموت دون رغبة، لن ينظر أحد إلى شكلي الخارجي، ولن أتألم جدا ولن يقول الناس بعد اليوم عن وجهي قبيحا.

ستضع جميع الجميلات رؤوسهن فوق الوسائد الكثيرة في قصري. سينسى حراس الأخلاق في المملكة شكلي الداخلي، ولن يقولوا عنّي، "هذا الشخص "تيديت"، والتيديت لا يمكن له أن يحسّ لأنّه ينام سعيدًا منذ قرون في مقبرة."

لم يتعب أمدياز من حديثه عن أحلامه لكن حركاته تغيرت، أصبحت أكثر عدوانية وشراهة فبعد أن تمرّغ في التراب بدأ يعانق الصخرة بشهوة كأنّه يراها امرأة وكان يرتعش من البرد وبصعوبة واصل كلامه. وأسنانه تطقطق:

-سأقضم ثمرة كل فتاة بكر تنضج في المملكة. وسأتذوق شفتي نومينسا الرطبتين، وفوق جسد "لاميا" الهائج سأكتب نهاية قصة نهمي وعطشي برغبة واندفاع. ثم ابتعد عن الصخرة مذعورا، بعد أن ثاب إلى رشده

-هذا لا يجوز. لعن أمدياز بهيمته، ودخل الكهف بلا ضجة، وذاته تتوعده قائلة:

-أيها المظلم سأكسر صخورك عما قريب ولن أفترش العتمة.

في ذلك الوقت، كانت نومينسا تروح وتجيء في غرفتها في قصر "هورا بن أوريغ بن برنس "، تارة تفتح النافذة المطلة على حديقة القصر تنظر من خلالها علها تلمح أحدا، وتارة تتجمد مكانها، تتمتم بغضب:

لقد اقترب منتصف الليل ثم تصرخ بأعلى صوتها، أكره الأكاذيب. قد قالت لي الكاهنة "ماتيا" أنّها ستأتي لتخرجني من هنا للقاء بوكوس عند الكثيب الأحمر. يبدو، أن لا شيء من

وعودها سيتحقق. لن أخرج من هنا.. و"هوار بن أوريغ بن برنس لن يأتي ليطمئن عليّ.

ما إن ذكرت اسمه حتى أحسّت بأنفاسه تملأ الغرفة. جزعت، التفتت فارتطم وجهها النّاعم بعضلات صدره المفتولة رفعت عينيها. فرأت وجها لون بشرته أسود مائلا إلى الاصفرار. كأنّ الطبيعة أغلقت عليه كل نوافذ الحياة، فيه عينان شاحبتان باهتة ألوانهما كأنّهما مسروقتان من البرد، وأنف إحدى فتحتيه أضيق من الأخرى، وفي وسطه تقوس واحديداب تشعر أنه يزداد نموا وانحناء، وكأنّ داخله شيئا شريرًا يريد أن يخرج. شفتاه غليظتان وأسنانه كبيرة الحجم كصخور مدببة أبية على السقوط. رأسه ضخم، شعره كثيف جاف أسود كأنه كساه الشوك. طويل كسارية، يداه ضخمتان عنيدتان. هذا العملاق، قبض بيده اليمنى وبيده اليسرى على خصر نومينسا الطري، همَّ بها، جذبها بقوة إلى هيكله السفلي وأسنانه في نهديها، دفعته المسكينة بصعوبة وهربت مسرعة قبل أن يخترق جسدها. قالت وهي تقفز بارتياع ضامة يدها إلى صدرها الذي طالما تمناه وسادة.

-ماذا تفعل أيها الملك ؟! هل جننت؟

فقال لها متغزلا:

نومينسا أعطني قدميك، عرّيهما، دعي أصابعي تلعب وتمشط شعرك بإتقان. سأحملك إلى عرشي وأغطيك بالكنوز.

ثم أخرج "هوار بن أوريغ بن برنس " قلادة من الماس وقال

هديتك.. يليق بك الماس يا نومينسا. ضعيها على عنقك الطويل. تبرجي، تزيني.. أنت الليلة عروس الملك. فصرخت و لعنته: "أيها الملك السافل". وقالت له مؤكدة:

-نومينسا لن تضمها يدان بعد يدي "أنير" الدافئتين".

غطت وجهها بيديها الصغيرتين وأخذت تندب وتبكي بكاء مرا ثم نظرت إليه حائرة!!!

-ألهذا قتلت زوجي وحبيبي، أأنت قاتل ابنك؟؟

قالت نومينسا هذا وهي لا تصدق ثم هرعت الى النافذة وصرخت بكل ما أوتيت من قوة:

-يا سكان "تماجورت" يا أمازيغ نوميديا، هذا الوضيع أكل لحمكم هذا الخائن سيحرق أرضكم، يا جماعة المجلس الاثني عشر، إنّه سفاح، أقذفوا إليه دماره فلتحل عدالتكم عليه .. اذبحوه.

من شدة قسوة كلام نومينسا انتفخ وجه الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" من الغضب فرمى قلادة الماس على الأرض وأغلق النافذة بقوة حتى أحست أن الغرفة ترتج تحت قدميها. كتمت صوتها مرعوبة. أما الملك فقد اقترب منها بلطف شديد كأنّه يمشي على رمشها أراد تنويمها.

فقال:

-نومينسا كوني فتاة لطيفة، أنا لست شريرا يا بلهاء، لكنها لم تستجب لفحيحه، فهجم عليها. حاول أن يرفع رداءها الشفاف وما إن وضع يده على نقرة حليها حتى عضته من يده، وانفلتت

من بين أصابعه كرملٍ ناعم. ركضت ودموعها المحطمة تتطاير. فتحت النافذة صعدت شرفة الشباك، وقالت بصوت هستيري، لا تقترب منّي سألقي بنفسي وسأصبح جثة هامدة. لن تغرز خنجرك في لحمي لا تظنني مدينة محاصرة حتى أسقط بسهولة وأقدم لك ما قدمته لحبيبي. داخلي لا يوجد سوى الغبار. وجسدي دفنته مع زوجي وحبيبي "أنير" .

من شدة بأسها ودفاعها عن شرفها، توقفت حركة الملك.

ليقول لها مستعطفًا وشفتاه ترتعشان:

- من اقتحم من؟! من ذبح قلب من؟! أنت الوحيدة التي استطاعت تجاوز خنادق قلبي لتزرع داخله حبك. ثم جثا على ركبتيه، وقال متوسلاً :

-تعبت من مقاومتك، تزوجيني، أريحي قلبي التعيس هذا، وأريحي نفسك، ولن أؤذيك. لكن نومينسا بصقت في وجهه بحقد، فنهض "هوار بن أوريغ بن برنس" كالبركان وثارت ثائرته. وقال متوعدا: أيتها الفتاة الشريرة من سيحميك إذا تركتك؟! لترد عليه نومينسا، وردها هذه المرة أنغرز كالخنجر في صدره.

-أيها الملك أنا أعرف، أنّك تحرِك هذه الروح الشريرة "تنكامرت نسمضلن" لنشر الرعب داخل المملكة.

استدعيتها لقتل *ماسين و *ازم و *امایاس و*يوبا و*يوباسن *كابون و*ازرو. وهؤلاء الفرسان مثلي اكتشفوا فظائعك كشفوا الحجاب عن وجهك المصاب بالشرّ، لتكشف لهم وجهك الحقيقي، أنت من قتلهم ليتهموني ببغلة القبور وبقتلهم.

بعد أن وجهت نومينسا تهمها المخيفة قفزت من الشباك كفتاة صغيرة مجنونة!!!! فسقط الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" أرضا بعد أن أطبقت أسنانها عليه، وكأنّها وحش كبير له أنياب ومخالب. أخذت نومينسا تضربه على صدره بجنون وتصرخ فيه قائلة:

-أيها القذر استغللت حدادي في المقبرة وغنائي الحزين لحبيبي البعيد طول الليل، لتلصق بي لعنة "تنكامرت نسمضلن" لأصبح في نظر سكان المملكة بغلة قبور. استغللته حتى وهو ميت، وشوهت تعبي البارد. تستدعي شبحك وخرير إرهابك ليأكل أصابع النّاس وأدمغتهم فيطارد الغزلان ويطعن كل حلم جميل في ظهره. و أُتهم أنا بأنّي أنام النّهار مع الموتى وعند حلول الظلام أتحول إلى جنية تكره عَصْرَ الرجال تنكل برجولتهم وتمزقهم.

في تلك اللحظة التي كانت تغلي كالجمر، وقبل وقوع الكارثة أنقذت الكاهنة ماتيا الموقف، لكنها صُدمت لهول ما وقعت عليه عيناها ... رأت ذئبة وشاة.. قاتلة وقتيلا؟

أسرعت لتنقذ الأرملة الثائرة من سيطرة الملك، ولتنقذ "هوار بن أوريغ بن برنس" الذي فقد هيبته وأصبح مهزومًا باستسلامه.

-أتركي الملك! ماذا حصل لك؟! هل أصبحت متوحشة؟!

لم يحن وقت سيلان الدم بعد.

لكن نومينسا لم تنصت، ظلت تردّد قائلة وكأن أحدًا زرع الموت في حنجرتها:

- سأقتله، سأقتله، سأقتله..

فاضطرت الكاهنة "ماتيا" لدفعها بقوة وهي تقول:

-هل جننت!

خلصت الملك من بين أصابعها العشرة. نهض "هوار بن أوريغ بن برنس" من على الأرض وهو يترنح وكأنّه كان عظما بين أسنانها تلوكه.

قال مذعورا وهو يضع يده على عنقه هاربا من نظراتها الحادة التي بقيت تصطاده حتى وهو يغادر الغرفة:

-ستتعفنين هنا يا بغلة القبور لن تري الأشجار تزهر في الربيع خارجًا. هنا سيحط الذباب فوق عينيك الجميلتين، أنت سجينة قصري ولن أسمح لك بالخروج لرؤية العالم، ستندمين على فعلتك الشنيعة. أعدك ...

خرج الملك كحصان خاسر وعادت الحياة من جديد داخل الحجرة.

نومينسا تدثرها أحضان العجوز "ماتيا"، كانت الدموع قد حفرت طريقها عميقًا على وجهها الحزين. واستها الكاهنة وعاتبتها في آن واحد قائلة:

-أخبرتك أنك ستكونين بخير لا تحزني. ولكن لماذا فعلت هذا به؟

رفّت أهداب نومينسا و هزّت برأسها، وبصوت اقتحمته طيور سوداء قالت:

صحيح أنني زهرة ذابلة. لكنّي لا أنبت في الوحل، لن يقطفني الخنزير. أحاطت يد الكاهنة المملوءة بالحب بجسد نومينسا. وهي تقول لها:

-أنا أدرك ما لا تدركه الأبصار العادية، أرى الآن بوكوس على الكثيب الأحمر يجيء ويذهب، يسأل عنك!! نومينسا أنت أقرب من رمش العين للعين، ستبصرين قريبا. لكن احذري فالحقيقة مجردةٌ والعينُ المجردةُ لا تلمس الأشياء من الداخل. هيا لنغادر هذا القصر ونذهب إليه. ومن شدة وقع كلام الكاهنة ماتيا قفزت نومينسا عاليا كأنّها حرّرت قدميها من قيود الأرض ورأت الشمس تشرق من جديد وقالت بقلب صاف:

- لنذهب، بوكوس سيخبرني السّر. إحساسي يخبرني أن الدّهشة ستصيب جميع سكان المملكة عندما يعود "أنير" من بعيد، ويكتشفوا أنّه لم يقتل. وأنا كذلك سأصاب بالدهشة. عندما أكتشف أن من في القبر شخص آخر لا أعرفه!

حب نومينسا الجارف لزوجها جعلها تروي حكاية تشبه حكايات الجدات عن البطل الأسطوري الذي يعود من الماضي ليحاصر حاضر الأشرار الذين لا يتركون للضعفاء منفذًا للحياة.

نومينسا التي لو تجَمَّعَ جميع الرجال حول قلبها المكسور ليجمعوه سيجدون كل قطعة منه تصرخ لا تلمسوني... لا فائدة..! قطرات الماء التي أحيا بها تحت التراب في قاع الصمت والحزن أنّى يوارى جثمان حبيبي الثري.

هل كانت نومينسا فعلا ترى ما لا يُرى؟ وهل ستتمكن من إزالة الضباب الذي يغطي صورة أنير؟ الكثير من الأفكار والتخيلات المعقولة والغير معقولة تزاحمت في رأسها وهي تهم وراء ماتيا بصمت مطبق ..

قطعت الكاهنة ممرات لا نوافذ فيها ولا فرح داخلها، ونومينسا تمسك بذراعها مرعوبة وكأنها ترى مشاهد حياتها المهشمة بفؤوس كثيرة ، فؤوس قومها الذين عاقبوها لأنها حاولت إضاءة قبر حبيبها.

في نهاية الممر غرفة صغيرة بابها يشبه شكل التابوت. أخرجت الكاهنة من تحت *الأسثاو[14] الذي ترتديه مفتاحًا لونه أحمر مليئا بالخدوش كأنّه غمس بالدم.

ما إن أدارت "ماتيا" القفل حتى تجمدت نومينسا في مكانها .

خافت أن تُخرج جثة من وراء الباب فتصبح متهمة بالقتل. أو أنها تدخل فتجد نفسها داخل قبر فتصبح مقتولة.

فتحت الكاهنة ماتيا الباب، فهجمت عليهما ريح ملطّخة بالغياب. اقتنصت الفرصة وركضت. فرّت بأجنحتها من هذا الدهليز الذي سرق حريتها. دخلت الكاهنة ماتيا، غير مبالية بخوف نومينسا الملتصقة بها كظلها، الدهليز سري وممره الطويل لا يعلم أحد في القصر أين يؤدي أو ماذا يوجد بين جدرانه أو ما هو عمره وعمقه في الأرض؟!

[14] الأسثاو

بمجرد دخولهما، وما إن وضعت نومينسا خطوتها الأولى على الدرج حتى حذرتها الكاهنة ماتيا إياك أن تتحدثي معي حتى نخرج من سردابه وأغواره بسلام، فبمجرد كلمة واحدة منك، تحل عليّ لعنة العمى وتتقطّع حبالي الصوتية فتفقدين عيونك وأنفك وقدميك وتختفين داخل جسدي الذي سيصبح حينها وكرا للثعابين وألتهمك رغما عنّي.

مشتا في الدهليز..عينا "ماتيا" تبرقان بالأضواء كأنهما مشعلان من النار. و نومينسا تشعر بالاختناق تريد الحديث تريد الصراخ... تريد السؤال لكنها تعلم أنها تحمل موتها في فمها إذا تكلمت.

سقف الدهليز يشبه لوحة تشكيلية فاشلة:

خنافس، عقارب، ديدان، يلتهمون دماغ فيل، وامرأة تطلق لسانها الملتهب وتلتهمهم، ووحوش كثيرة وراءها تخفي رؤوسها بأقنعة حيوانات أليفة ميتة، تقترب من ظلها لتعضها. فتقع في مصيدتها التي غطتها بخصلات من شعرها فتخنقهم ضفائرها من بعد.

أرضية هذا السرداب ذي المسلك الطويل والضيق، منثور عليها بقايا قطع صغيرة من أوان طينية وملاعق حادة صنعت من خشب النخيل، تكسّرت ضلوعها، مغروسة في الشقوق تبحث عن الرغيف أو حتى اللحم الحي لتتمكن من الحياة.

هذا الجزء من الدهليز كأنه بقايا عش قديم لعاشق بائس أتلفته العواصف أو بقايا حضارة مازالت ممتدة داخله، فمنذ

أن أطلق التاريخ طلقته الأولى دوّنت مدن الأمازيغ البائدة وجودها بآثارها وانجازاتها.

الأمازيغ أول من استعمل الأواني والملاعق ليداعبوا الطعام بكل غبطة وأناشيد في ثورة إنسانية على البدائية والتوحش وعدم التذوق.

مشت نومينسا على وقع خطوات الكاهنة ماتيا بسلوك القطيع دون أن تفكر أين وضعت نفسها!!! وممرات الدهليز معتمة. يناديها النهار ولا تلتفت إليه، وجدرانه لا تترك شبابيكها مفتوحة لأنّها لا تطالب بالحرية.

لم يأخذهم طريق هذا السرداب لنور الشمس أو لبصيص من ضوء ليقولا وجدنا المخرج، سننجو. أخذهم إلى ممرات ثلاثة أشارت ماتيا لأوسطها، ونومينسا تتساءل هل اختارته عن دراية أم بعبثية لتدخلا متاهة موت جديدة؟!!

ما إن تجاوزتا مدخل الممر الجديد عبر أدراج ضيقة، حتى أحست نومينسا برعب مختلف، ظلال مجهولة تراها من حين لأخر، ربما هي أرواح ضحايا لمن هم في الأعلى، أو موتى تذكروا في قبورهم أنهم لم يعيشوا كما ينبغي فقرروا العودة، لكنهم لم يجدوا أحدًا ينتظرهم بلهفة، غير هذا الظلام الذي حشرهم داخله. أغمضت نومينسا عينيها كي لا تراهم لكنها مجرّد تائهة مع عجوز مجنونة بين جدران لا تبوح بأسرارها ولا تقول الحقيقة.

دخلت بإرادتها لسجن مفتوح بلا أبواب ولا زنازين، إلى طريق لا ينتهي. وأخيرا تكلّمت الكاهنة ماتيا بثقة:

-لقد اقتربنا من الخروج، لتفتح نومينسا عينيها المغمضتين برغبة واندفاع. وجدت نفسها في قاعة واسعة تحيط بها مجموعة من الأقواس والدعامات الضخمة وخيوط رفيعة من ضوء القمر تتسلل محتشمة عبر ثقوب في السقف لتضفي على المكان المزعج هالة من الرومانسية الكئيبة. وماتيا هناك تبحث في بقايا التاريخ. تزيل الغبار عن الجدران السوداء. تضع أذنها على الحيطان، حتى عثرت على تجويف يشكل بداية ممر سري يتسلل من تحت الدهليز القابع تحت القصر وقالت هذا المخرج.
أشارت مومئة برأسها لتشجع نومينسا:
ـ لا تخافي سنزحف فقط قليلا. فقاطعتها نومينسا بكل سخرية قائلة:
-لندُرْ في نفس المكان!!!!
فأكّدت لها الكاهنة قولها وهي تحفزها مرة أخرى:
-لن تري جدارا بعد الآن وخروجك من هذا المكان الضيق بداية وضع أول حجر لغلق الزنزانة يا ابنتي.
ماتيا تزحف برشاقة ونومينسا تقطر عرقا كأنها تحمل فوق ظهرها أكياسا من الطحين وعيناها تنظران وتنتظران متى ينتهي هذا الطريق ؟؟!!.
وفجأة أحست أن أطرافها لم تعد تؤلمها تفطنت أنها تزحف على العشب، نعم إنها أعشاب الغابة. فركت عينيها لتتأكد هل فعلا غادرت ردهات ذلك العالم. دهليز، ممرات، تجويف... إلى أن رأت

أمامها صورة لنرجسة تبتسم في وجهها. وسمعت صوت الكاهنة ماتيا قائلا يذكرها ؟؟؟!

-إنه العشب والأشجار، لا تدخلي أحراش الغاب بخطى خائفة يا نومينسا. ومدّت لها يدها لتساعدها على الوقوف لكنها رفضت أن تنهض. قالت باكية:

-أريد أن أموت تعبت... مللت من السّجن والسير والزحف.

لا أريد الذهاب إلى أحراش الغاب. ماذا إن حدث لي مكروه هناك قبل أن أتمكن من زيارة قبر حبيبي مرات أخرى !!؟.

ثم صرخت بتداعٍ وخوف: "أنير" أنقذني من والدك الملك هوار، أنقذني من بغلة القبور، أنقذني من لاميا، أنقذني من هذه العجوز التي تتلاعب بعواطفي.

مدت ماتيا يدها لها وقالت بهدوء:

-إذا أردت حظًا جديدًا لا تختبئي في المنعطف، قفي على قدميك يا نومينسا. أستواجهين الحياة بهذه الدموع وهذا الضعف؟!! قد ينبثق نبع من بين الصخور التي تنتصب أمامك وأنت تهربين منها. بوكوس ينتظرك هناك في أعلى التل عند الكثيب الأحمر لنعبر الأحراش. لن يخيفنا صفير الأبالسة.

نهضت نومينسا قائلة: هذه، ليست الحياة التي أريد.

ثم توغلت في أعماق الغاب مع الكاهنة. القاع ملطّخ بالأوراق التي انهزمت في حروب مع الطبيعة. والجذوع التي خسرت حنان الأشجار. بدت من بعيد كأنها سواعد العاشقين الفاشلين ترتجف بعد أن فشلوا في ضم حبيباتهم.

ومن قريب بدت كأجساد يابسة لمغامرين خرجوا من بيوتهم خلسة ولم يغلقوا أبواب منازلهم خلفهم حتى لا يسخر أحد من فشلهم إن لم يعودوا، فقضوا نحبهم ببطء وجوع وبرد في البرية، بعيدا عن عيون من يتمنون موتهم. ضوء القمر لم يستطع أن يتسلل ليضيء رحلتهما، غطت أوراق الأشجار الكثيفة جميع المنافذ في وجهه فأصبح لون الأوراق أسود وبات الطريق مخيفًا وغير واضح.

الكاهنة تنحني، تميل يمينا ويسارا، تتشابك مع أغصان الأشجار، ونومينسا تتعثر، واصلتا المشي دونما انقطاع. ولم تلتفتا للخوف الذي كان يلاحقهما. وأخيرا بلغتا طريقًا مفتوحًا، فظهر القمر_ونشر الضياء مجدّدًا. أشارت الكاهنة ماتيا بإصبعها إلى التل حيث الكثيب الأحمر وحيث بوكوس وقالت:

ـ اصعدي إليه، ثم أخذت تنشد..

"نومينسا

لا تضعي يدك فوق صدره

لقد أكثر من الخطيئة

فتحوّل قلبه إلى وحش"

كان بوكوس يقف على التل، يتكئ على صخرة مسننة، ينظر إلى السماء الواسعة كأنّه ينتظر سقوط شيء ما. لم ينتبه لوصول نومينسا، ولا لعينيها اللتين تتفحصانه. بوكوس طويل القامة بطنه مسطح. حاجباه منخفضان يمنحانه ملامح شريرة، عيناه

باردتان. عندما تتحدث معه تحس أنّهما تتكلمان في صمت وتقولان نحن لا نثق بأي أحد. لا نافذة فيهما للغوص إلى روحه. فقط ظلالهما عميقة. وجهه لا قسمات فيه. لا تستطيع أن تخمن من ملامحه الصامتة إن كان سيحدثك عن الحب والأزهار أم الحرب. ابتسامته باردة ترسم شخصية مستفزّة. أنفه قصير يشير إلى أن العصافير لا تحط فوقه. وفمه ضيّق لا يتسع لقبلة كبيرة مليئة بالحب.

لون بشرته القمحي يشير إلى صلابة جسده، أو لفحولته الصاخبة تتلقف الشفاه الرقيقة للعذارى وهو يقدم نفسه لهن هائجا كالبحر فيغمر أنوثتهن. بوكوس كله أسئلة وحل ألغازه لن يكون بسيطا.

اقتربت منه "نومينسا" أكثر فتفطّن لوجودها، فتح عينيه ليجدها أمامه. فصاح فرحًا وكأنّ روحه قد عادت إليه:

-استرحت من اليأس. أخيرا جئتِ... الآن سأتخلص من وجعي ومن هذا الانتظار القاتل. نومينسا لو لم تأت أقسم لك أني كنت نثرت الموت فوق قصر الملك هوار بن أوريغ بن برنس وأحرقت عرشه هذه الليلة. لم أعد أتحمل تلاعب أصابعه الرخيصة بمصير تماجورت ومملكة بحجم نوميديا.

لا شعوريا اقتربت منه كأنّها تبحث عن وسادة صغيرة تملؤها دموعها. ضمّها وبخطوات متهاوية ألقت بجسدها بين أحضانه، هاربة إلى ظله كأنّها تهرب من شمس أيلول الحارقة، فامتص عشب صدره دموعها المتناثرة قطرة قطرة برجولة وحب، يداه

تدقان بقوة باب أنوثتها تضغطان بجنون ودون ضجيج على لحم خصرها الطري كالزهرة. رفع جسدها فأهتز قلبها وهو يغمرها بقوة أكبر وهو يقول:

ـ اقتربي من النجوم يا نومنسيا سأعيد روحك التّائهة لمدارها...

لكنها انتفضت فجأة وبقوة انتزعت نفسها من حضنه قائلة:

ابتعد يا بوكوس أنا متعبة جدا، مشيت وركضت في دهليز وجُرحت وتلطخت وخفت، تحمّلت كل هذا العناء لأخرج من القصر وأعرف السر! روحي لن تعود إلى مدارها حتى تخبرني بم باح لك؟ "أنير" لم يمت. قل لي إنه حي.

تقدم بوكوس مرة أخرى من نومينسا وقال بأسف شديد:

-أنياب والده الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" قتلته، سمُّ والده تساقط عليه بغزارة.

وواصل حديثه وملامح الحسرة تظهر أكثر على وجهه. غيّر نظرتنا إلى الحرب. كنا نقاتل كالذئاب المنفردة غير منظمين، لم تكن هجماتنا تسبب أوجاعًا كبيرة للجيش الروماني وفي المقابل بقي دمنا يسيل بغزارة. لقد أحيا أنير قوميتنا الأمازيغية. تعلمنا منه أنّ جيادنا ستبقى خاسرة ما دمنا كشعب لا نملك حصانًا يقوده ويوجهه رجل واحد. وما دمنا نحاربهم متفرّقين. لن تخاف كثرتهم من شجاعتنا. دعانا كشعب أمازيغي أن نأكل من صحن واحد وبملعقة واحدة ونقاتل بسيف واحد. وإلا سيلتهمون جميع بيوتنا وأشجارنا حتى رؤوسنا. ليواصل نجّاروهم صناعة

الصلبان، لنُصلب. وتواصل الكنيسة مباركة دمائنا التي تسيل باسم الرب الذي سيبارك بدوره رخاء روما كلما توسعت أكثر.

رفع بوكوس رأسه إلى السّماء وقال مفاخرًا بالشعب الأمازيغي:

-مضى مع القائد "أنير" نحو الحرب، كلّ الأمازيغ المشتّتين من وراء الدلتا والصحراء الكبرى، بمختلف أسمائهم عادوا إلى أنفسهم فنهضت مملكة نوميديا من الأنقاض من جديد.

لم تقاطع "نومنسيا" كلامه لأنّها كانت تريد أن تعرف جميع التفاصيل حتى التي كانت تعرفها... وظلت تستمع وعيناها تفيضان بدموع الفخر والمرارة. لكن بوكوس استدرك قائلاً لائما قائده هذه المرة:

-الخطأ الوحيد الذي ارتكبه "أنير" أنه رفض أن يكون ملكا على نوميديا لأنه يرى أن جلوسه على كرسي الملك سيجلب أعداءه للتفاوض معه، وهو لن يفاوض على حبة رمل ولن يقايض حفنة من تراب نوميديا بنساء روما ورجالها كلهم.

ارتباطه بأعماق هذه الأرض لم يسمح "لأنير" بأن يجلس كما تجلس الملوك ليرتاح.

لقد قال لي مرة:

-يا بوكوس حتى وإن انتهت هذه الحرب وانتصرنا، الأقدام الهمجية ستأخذ سكاكينها إلى أماكن أخرى، ولهذا لن أكفّ عن الثورة وسأسافر باحثًا عن الذين أُخذوا بعيدا إلى السجون عنوة، وأحررهم. سأطرد بعوض روما وأكاذيب كنيستها من

أجساد الشعوب الضعيفة. وسأقول لهؤلاء المستضعفين ما دمتم لا تصرخون في وجه المغتصبين لا داعي للبكاء.

طلب "أنير" و ليته لم يفعل ذلك، من مجلس الاثني عشر التيديت الذين وقع اختيارهم من الشعب الأمازيغي. اختيار ملك واحد على نوميديا وإنهاء حالة تمزّق أبناء الشعب الواحد. ولأنه لم يكن يعرف "هوار بن أوريغ بن برنس" الذي كان حينها ملكا فقط على القرية القديمة "تماجورت"، اقترح على التيديت أن تكون الكلمة الأخيرة بيد والده وهكذا أصبح هوار يجلس على عرش المملكة النوميدية الأمازيغية. وبقي هو قائدا على رأس الجيش، يحارب إمبراطورية عظمى من أجل أن يصبح للأمازيغي الذي ولد بلا وطن، أصبحت له أرض يتنفس داخلها الحرية كالهواء.

قاطعت "نومينسا" بوكوس. وقالت وهي تنفجر غضبًا:

ما زلت لم أستوعب إلى الأن هذه الفكرة الفظيعة، أهكذا يموت الثوار عندنا ولا ينتفض أحد!!؟ تنظرون إليهم بلا مبالاة وتتركونهم هناك يتفصدون موتا!!! كيف يُدفن بطل بتلك الطريقة المريبة ودون القبض على قاتله!؟؟

الملوك النوميديون يموتون واقفين لا ينحون. كيف سمحتم يا بوكوس أن يحنوا رأس قائدكم، دون أن يدثره أهله وشعبه بالزغاريد ؟!! هذا السكين الذي طعنتموه به حاد ومؤلم جدا. أخبرني كيف فعل هوار ذلك؟!! وكم من وجه كريه لم ينتظر حتى

نرمي الأوراق الخضراء على جسده وأن تضمه المرأة التي تحبه وتهدهده!!!

مَن حرم قلبي من حرية البكاء؟ من هذا القاتل المزيف الذي ردم زوجي بعد منتصف الليل؟ حبيبي ليس مُعتما يا أصحاب القلوب السوداء حتى تدفنوه بهذه الطريقة الوحشية! أهكذا ترمون قلوبكم في الحُفر أيها الأمازيغ؟ ولا تسألون ماذا سيحصل لها هناك!!؟

قاطع بوكوس نومينسا وهو يضع يده على كتفها قائلا: ليس لدي ما أخبئه، إلا حصالة دموع أقسمت ألا أفجرها حتى أقطع رأس الخائن هوار وأذبحه كالخروف. أرجوك دعيني أكمل حديثي الأن يا "نومينسا" ثم احتجي. قبل أن تشكّكي في رواية قتل زوجك، يجب أن تعرفي كل شيء...

هوار بن أوريغ بن برنس عندما كان ملكا فقط على القرية القديمة تماجورت قبل اندلاع ثورة الأمازيغ الكبرى بقيادة ابنه "أنير". جمعته قصة حب في الخفاء مع شيوخ من مجلس روما. ومقابل أن يضع القياصرة أيديهم على كامل نوميديا فيقسمونها كما يريدون إلى جثث وأوطان بعيدة.

يبقى قصر الخائن هوار من الداخل بخير ممتلئا بالهدايا وشفاه الأمازيغ في الخارج يابسة. كل صوت في تماجورت كان ينادي: "نوميديا للأمازيغ..."

هوار بن أوريغ بن برنس يتولى مهمة كبح جماحه وإرساله سرا إلى الذئاب الرومانية

قالت "نومنيسا"

-لمَ لمْ تصارح "أنير" بحقيقة والده؟! يداك متورطتان أيضا يا بوكوس. وخوفك من هوار جعلهما متورطتين في الدم والخيانة العظمى ...

-ألم أقل لك اهدئي؟ قال بوكوس متمردًا على تخوينها له.

-ليتني امتلكت هذه المعلومات قبل أن ينصب مجلس الاثني عشر التيديت "هوار" ملكا على نوميديا. للأسف أخبرتني مانويلا ابنة التاجر الروماني الثري ما أكره سماعه.

رفع بوكوس يديه إلى السّماء وقد تبدّلت سحنته وكأن روحه طفت على ملامحه. بدت نبرته الروحية غريبة ومجهولة لم تسمعها "نومينسا" من قبل.

-أيها الرب.. لا تغفر خيانة الملوك الذين يمنعون شعوبهم من طلب حياة جديدة! الذين مازالوا ينعمون في القصور وشعوبهم تنام في المغاوير والمقابر!! أيها الرب إنهم بشر عاديون مثلنا، فقط أفراحنا الصغيرة تسبب لهم دمارًا كبيرًا.

"آمين"

ليصمت بعدها صمتًا عميقًا، وكأنه شبع من الدنيا، بعد أن علّق في قلب السماء آماله الأرضية. فقالت نومينسا:

-مانويلا؟ الرب!! آمين ؟! هذا هراء! وارتمت كالعصفورة ميتة على الأرض. كنت أظن أن حياتي ستكون جميلة. لكنك أطلقت سهمًا على رأسي!! لا، لم يخبرك "أنير" بشيء أنت كاذب فاسد وشرير.

سأعود إلى الطاغية هوار بن أوريغ بن برنس. ولن أفتح باب غرفتي ثانية.

-يا نومينسا استيقظي! لا تطفئي حياتك. أنا مثلك أيضا أشك في رواية موت "أنير" ولا تنسي أني كنت في الأسر. والمعركة تواصلت بعدي ولم تتوقف. نعم "أنير" طعن من الخلف !! لكني أعرفه جيدا. إنّه ليس بالفارس الذي يموت من طعنة واحدة.

ـ ماذا قلتَ ؟ حبيبي...؟!

نهضت نومينسا من انتحابها، كأنّها سحبت السكين الذي غرزته في قلبها وأصبحت بخير. أخذتها رعشة راحت تلمس بوكوس من عنقه وبطنه وكتفه وشفتيه. وقالت:

ـ أرجوك أخبرني المزيد أرجوك. ثم وضعت رأسها على صدره قائلة: حبي لزوجي لا تسعه هذه الأرض الصغيرة أنا متعبة أريد أن أعرف الحقيقة لأرتاح..

فقال لها بوكوس وهو يداعب خصلات شعرها الغزير:

-أحس بك يا نومينسا. آه من صقيع الحب. بعد أن علمتني مانويلا القراءة، أتذكر أني قرأت مرة شيئا حيرني. لو كان الحب أشجارًا، هل كانت ستسعه براري الدنيا ؟!

-هل أنت مغرم؟ سألته نومينسا كطفلة صغيرة هدأت بعد بركان من الصراخ والبكاء. فأجابها:

-أنا دائما أعيش حالة حب. يصعب عليّ أن أضع وردة واحدة في كأس قلبي. حتى لا أراها تئن، وتتساقط أوراقها بسببي. أنا رجل

جاف. لذا أتنقل بسرعة من امرأة إلى أخرى. الاعتياد قاتلٌ نومينسا.

-انتظر لحظة! الاعتياد؟ أين سمعت هذا؟

"أخاف أن ألمسك لأنّي حين أمسك يدك لا أستطيع أن أبتعد عنك." لا أعرف. لكنني لم أودعه ولم يودعني. لا من المستحيل. لن أتوقف عن انتظاره، ولن أعتاد غيابه. بوكوس أيها الرجل، لا تكذب. قالتها بهدوء، وهي تقفز كالغزالة مبتعدة عن حضنه، ثم أخذت تتحدث بطريقة هستيرية وكأنّها تحارب أعداء قساة بكلماتها الجريحة:

-ألا تعلم أن قلب المرأة يضحك ويبكي ويتألم؟ ألم تتساءل مرّة ماذا يحصل إذا توقف رجل أحمق عن الحب فجأة؟

وقال لحبيبته الغبية سأتركك وأرحل لأنّني كنت أتسلى بقلبك وأركض فوقه، لا أستطيع انتظار امرأة واحدة تعوّدت الطيران، أنا غراب مريض سامحيني...لقد كانت تنتظره بلهفة، وهو كطفل لم ينتبه أنه يركض فوق غصن أخضر، ركض وأشلاؤها تتطاير. المرأة كالفراشة يسهل كسرها، لكن يصعب فتح جناحيها مرة أخرى لتطير. لا تتحدث معي عن الحب وجسدك بارد هكذا يا بوكوس. قالت له نومينسا محذّرة بانفعال وهي تضرب بكلتا يديها على صدره ثم هدأت. وعادت تقول بثقة:

-أنظر إليّ رغم أن جسدي يئن من شدة اليأس. لكنّني مازلت أحمل راية وأبحث عن حبيبي غير مبالية بالحقيقة التي يجاهر بها جميع سكان المملكة بأنه مات مطعونا من الخلف. سأواصل

السؤال ولن ترتعش شفتي لأن أفواههم الساقطة قالت عنّي مجنونة. ولن أخاف من الذين ينظرون برجعية!! ويقولون عن كل امرأة مسكينة خرجت في الليل وغنّت بصوت حزين عند قبر زوجها لأنها مكلومة، بأنّها تنكامرت نسمضلن، بغلة قبور ملعونة تعترض طريق الرجال لتقتلهم. لا أعرف لماذا في أذهانهم شيء واحد؟ أن كل امرأة رأت أو تحدثت مع رجل بعد وفاة زوجها لن تنجو منه ولن ينجو منها؟ ما هذه الأصفاد الثقيلة والتهم الرخيصة ألا يحق للأرملة أن تتنفس بعد وفاة زوجها لماذا يلقون الحبال حول لحمها؟ ولمَ يفكر قطعان من الرجال أن لحم الأرملة رخيص؟ أقسم بالقمر الذي أعبده أن كل من سيتجرأ على فتح ثغرة في لحمي سيجد نارًا تحت جلدي وسيحترق. وسأقذف عليه دماري كما فعلت مع الملك هوار بن أوريغ بن برنس عندما حاول مد يده ليلمسني فكسرتها وجعلته يرتعش.

-يا نومينسا ماذا حصل لك قال بوكوس مستغربًا:

-أنا لست عدوك!! أصغ إلي. وتوقفي عن هذا! لم نأت من أجل الحديث عن تنكامرت نسمضلن. اسمعيني جيدا..

كبير جماعة الاثني عشر التيديت "أمسناو" يضفي على سياسة الملك الخائن "هوار بن أوريغ بن برنس" وبأيدي التيدبت روح الشرعية. إنّه يبارك ملكه، وبمباركته يتوقف قلب كل من يعارض هوار بحجة سلطة الملك وشرعية المجلس اللذان لا يناقشان.

وقرار تأجيل النظر في أمر اتهامي الخطير للملك الخائن حتى اكتمال الأشهر القمرية، لم يكن من فراغ أو قرار اعتباطي من شخص عادي يا نومينسا. يظهر هذا مدى خبث التيديت "أمسناو" لأنه مطعون بالنجوم، أجل خطة إعدامي حتى اكتمال الأشهر القمرية. لا حبا في بقائي حيا وحصول معجزة تثبت براءتي وتجنبهم تلطيخ أيديهم بدمي بسبب افتراء ملك خائن. الخوف من تمرّد الجيش إذا فتحت نافذة إعدامي ولم تغلق بسرعة، جعلهما يؤجلان الأمر. لأنّه وبحسب أعرافنا الأمازيغية حكم القتل لا يمكن أن ينفذ عليّ، إلا عندما يكون القمر كثيفا في مركز السرة بين فكي الشمس. لأني أعتبر من أصحاب الأبواب الكبار داخل المملكة النوميدية، والذين إذا أعدموا يجب أن تكون الأرض متوهجة ليكون جرحهم ودمهم غزيرا وألمهم قاتلا. لا يوجد حل أخر غيرَ ... وصمت بوكوس ؟!

-غيرَ ماذا؟ قالت له "نومينسا"..

-سأستعينُ بالغريب. لدي مجموعة من الأصدقاء القديسين عرفتهم خلال أسري في روما. سأقص عليك حكايتهم من بعد. حكاية ماذا يا بوكوس صرخت نومينسا في وجهه وهي تتنفس بصعوبة:

-ومتى كان لنا أصدقاء في روما؟ هؤلاء القوم اضطهدونا.

-ثقي بي أنا مثلك أيضا، لا أحب القتلة والمغتصبين والسجون لكن الحرية كالماء قد نضطر أحيانا من أجل الحصول عليها إلى شرب القليل من الشوائب معها.

-سأفعل هذا من أجلك، من أجل أن نعرف أين هو قائدي "أنير" قد يكون حيا ويعذب يا "نومينسا" في سرداب من السراديب تحت قصر الملك هوار بن أوريغ بن برنس.

السّر الذي أخبرتك أنه أخبرني إياه أوصاني ألا أبوح لك به إلا في الوقت المناسب حتى لا تُفشي ما أنا بصدد القيام به الأن. فعلا كأن القائد كان يرى الغيب يا نومينسا لقد أخبرني بأدق التفاصيل وماذا أفعل إذا غاب.

وبينما كان الفارس بوكوس يتقن حديثه بمهارة و "نومينسا" تنظر إليه ببلاهة، ظهرت الكاهنة ماتيا فجأة لتنشد محذرة:

"إنّه بارع في السفسطة

تهذين

سيمضغُ حروفك بشراسة

ولن يحرث شيئا."

ـ الكاهنة "ماتيا" لماذا أنت دائما هكذا متوترة؟ قال بوكوس ساخرا من تحذيرها، لكنها لم تجبه جذبت "نومينسا" من يدها وهي تقول:

-تأخر الوقت. بنيتي أبواب الدهاليز مبطنة بإحكام إذا طلع الفجر لن تفتح وسيكشف هوار أمرك، سنعود إلى الكثيب الأحمر مرة أخرى. ومثلما وعدتك قريبًا، قريبًا ستنفضين الغبار ولن يتشبث بك التعب بعدها. مشت بخطى مترددة وهي تنظر إلى بوكوس. اختفت "نومينسا" مع العجوز داخل الغاب.

طلع الفجر ولحقه الصباح يرقص باطمئنان فرحا بقدوم رأس السنة الأمازيغية الجديدة "إخف أوسغاس" أوّل شهر في التقويم الفلاحي عند الأمازيغ. جاؤوا من المدن والقرى والجبال القريبة والبعيدة من كامل ربوع مملكة نوميديا ليحتفلوا مع عاصمتهم "تماجورت" بالطبيعة وارتباط أمازيغيتهم بالأرض والزراعة. أعطى الملك هوار بن أوريغ بن برنس شارة بداية إنطلاق هذا المهرجان الضخم بوضع عصي طويلة من القصب الأخضر في الحقول تفاؤلاً بمحصول زراعي مليء بالرخاء والخصوبة. ولبس الصغار أقنعة من جلود الكبش والماعز وجابوا سهول القمح وغابات الزيتون مرددين أهازيج مصحوبة برقصات تغني للحياة وتقول للفصول كوني طرية هذا العام، أبعدي سحب الجوع عن أرضنا.

صعدوا الجبل، ولعبوا مع الرياح، قطفوا الأزهار مدوا أيديهم بغبطة ليتسلقوا أشجار الطلح وقفزوا من فوقها. ارتموا فوق عشبة شيح لتحارب بضراوة ذكريات الوجع وتداويهم.

ثم مسحوا وجوههم بنباتات الإكليل لتعطيهم نكهة شهية من الطبيعة وهم عائدون أخذوا من العرعار البرطي ميله للحرية حتى وإن كان يرضع من ثدي الأرض. لتستقبلهن النّساء *باحروي[15] أمازيغي. و *تاسمرت[16] مزركش بألوان الهوية،

---

[15] أحروي : قطعة قماش طويلة تغطي كامل الجسد يشد في كلتا جهتي الصدر بروابط تسمى تسغناس التي بدورها تتخذ أشكالا على شكل مثلث وتارة على شكل دائري مع زخرفة أمازيغية

[16] تاسمرت : حزام من الوبر مزركش بألوان مختلفة يشد على مستوى الخصر

قبضَ على خصرهن، وهن يوزعن الابتسامات والأكل. ما أطيب *السيسكو. الرجال ينتظرونه بشراهة بمعالق كبيرة. حبيباته من دقيق القمح بحجم حبات الكزبرة طحنت بواسطة *تاقرقورت. وتنضج في كسكاس بجنون على بخار النار، ثم تخلط بالسمن أو اللحم، ويسقى بالمرق. بجانبه *زميط بارد " يحد من غائلة العطش ينشد تعالوا، تعالوا، و رائحة من هناك قادمة من *فليو[17] يغلي على نار هادئة يغسل وجه *الببوش، تفوحُ عطرةً خضراء، لا أحد يستطيع مقاومة تذوق هذا الطعام، لكن لذة *الأغْرُومْ[18] المحشي بالحشائش والخضار جاءت أقوى. الجميع يرقصون حول هذا الخبز من سميد الشعير ممسكين أيدي بعضهم، يركلون الحصى شاتمين المتاعب مناشدين الأرض وهم يستقبلون قواها الخفية أن تخرج *الليالي البيض[19] وتدخل *الليالي السود[20] بأفكار جميلة. حتى لا يصاب أحد من أطفالهم بالزكام، ولا يضطروا أن يغمضوا أعينهم وهم يتأسفون أمام جفاف قحطٍ أو دمار فيضانات. لكن للأسف هذه القوى قلبت وجهها ببلادة؟

---

[17] فليو: الفوتنج عشبة برية تستعمل لتعطير الشاي ولحسن الهضم

[18] الأغروم : خبز أمازيغي و هي الكسرى

[19] اللّيالي البيض: (تقويم أمازيغي) سميت اللّيالي البيض لأنّها قليلة الغيوم والسّحب. البرودة فيها شديدة في الليل مع نزول الصقيع.

[20] اللّيالي السّود: (تقويم أمازيغي) خلال هذه الفترة تبدأ المزروعات في النّمو بعد فترة سبات خلال الليالي البيض وتبرز ورودها مواصلة نموها بقية فصل الشّتاء.

لم تصغ لدعائهم، فتغير كل شيء فجأة. هواء بارد حوله يعبث ببقايا الأوراق والحشائش الغضة. إنّها تلهو بطريقتها الساخرة بعناصرها. فرّ المحتفلون وكأنهم يقولون لها قد فهمناك سنتركك الآن ونرحل لتحتفلي وحدك. عواصف ورياح قوية. الزوابع قادمة. براءة وطفولة الطبيعة هي من فعلت ذلك، ربما لأن البشر لا يستحقون جمالها فحافظت على لوحتها من أن تتلطخ. أو ربما أنّها ضجرة ولم تجد مع من تلعب، فقرّرت الطيران بجناحيها الهائلين والغناء بفرح وجنون ثم البكاء على وسادة والاستلقاء فوق السرير كالأطفال والتمتع بالذكريات... بروايات الأمهات وقصص الجدات عن معشوقها الطقس الذي كانت تلاقيه خلف الجبل عند صعود الشمس، وتحت البحر عندما تسقط الشمس في البحر، يوم كانت تطير كالفراشة من صباح لصباح.

وللطقس ذكريات مع العنزة الشريرة التي ما إن رأت الضوء والشمس حتى استخفت بقواه فكفرت بشاعرية الشتاء وحميميته مع الأرض، التي أخرجت السنبلة حية من تحت التراب الجاف. جحدت ولم تتذكر إلا العواصف والبرد والثلوج، خرجت ترقص في المراعي وقالت له يا لئيم الدفء حضن رجل أحبه. جسدك العاري خذه بعيدا عنّي لا حاجة لي بك أنت.

فأطلق عليها لعنة ذات أسنان حادة كالثلج عادت من الورى مغيمة أقسمت على الشمس ألا تطلع، فماتت العنزة واحترقت

قرونها. وبات هذا يسمى في الميثولوجيا الطبيعية عند الأمازيغ *بقرّةِ العنزة أي تقلب الطقس وعدم ثباته...

هو كان هنا ولم يكن. جاء من بعيد وأصابع يديه العشرة مشبّكة ببعضها كأنه يخنق نفسه بهما ورأسه في الرمل.

ينظر بصمت إلى بقايا البهجة التي تحوّلت بمجرد قدومه إلى مسرح للقتل، بسبب غضب الطبيعة.

ينظر وفي قلبه غصة تتحدّث وحدها:

-ليتني أستطيع أن أفتح يدي مللت من غلقهما، أتمنى أن أصعد مرة هذه المرتفعات فأستمتع مثلهم بالحياة المفعمة بالأشياء التي أحبها. ليت أصابعي تحتوي تفاحة مليئة بالحب والشهوة بعيدا عن عتمة نهاري الحالك السواد.

كم أتمنى أن أفتح عيني في الصباح وأجد نافذة مفتوحة، كرهت تقدّمي في طريق لا نهاية له، أريد أن أكون حيا تماما كبقية سكان المملكة وأن ألمس جميع أعضائي دون الخوف من تلك الأماكن المهملة. سامحني يا جسدي لأني حرمتك من تذوق الروائح. كذبت يا نفس عندما قلت لا تصدقي الحب حتى لا يفترسك، فأصبحتِ تعوين داخلي كالذئب، سامحيني لأنني حرمتك من الحنان. أنا أكره التبتل وأكره التيديت، سأنتقم لإنسانيتي من كل شخص حرمني وقال لا للرغبات. كذب وصدقته. نحن البشر رائعون لماذا لا نكون على فطرتنا فننظر للجميل دون خوف. ألا يعلمون أن الخلود هو التناسل لماذا يحرمون التيديت من

الخصوبة ومن الأمومة والأبوة ؟!! نحن لا نشبه طائرًا حزينًا عاجزًا !!

مازال الكثير أمامي، لذا قرّرت أن أدير هذه الموسيقى الخرساء! وسأقتل كبير جماعة الاثني عشر التيديت كما أخبرني الفارس ماسون سأفعل، أقسم أني سأفعل هذا ...

حلّ الظلام بخطاه الثابتة... لكن ماذا يحصل في حانة القصر؟ شيء غير عادي!! رجل يترنح يحاول الوقوف على بيضة نعامة، يسقط كادت الأرض تكسر جمجمته !!! لكنه ينظر إلى كأس النبيذ الذي في يديه مذعورا ويقول له بعد أن أطمئن عليه:

ـ المهم أنك بخير، أنا لا أحس بشيء، أنا سكران وانفجر ضاحكًا، ولا تسألني عن مكاني وماذا أفعل هنا؟ أنا الآن لست كبير جماعة الاثني عشر، لست التيديت "أمسناو" لنتبادل القبلات، ويقبل *أمسناو" الكأس وهو يترنم بمثل لاتيني:

"في النبيذ تجد الحقيقة".

أتعلم أكره أن أفصح عن أمور لا أريد قولها، لكني الآن أشعر بالسّعادة هاهاهاها. دماغي لم يعد مشوشا، ما أجمل مشاعري الحقيقية وكم أكره شخصيتي وأنا واعٍ. مللت من توزيع المواعظ. مهنتي هي تجارة المواعظ... وترك أصابعي تلعب خارجها في... هاهاهاها. تلعبُ مع الملوك لأني لا أحب فراق الملوك، نحن ذيلهم الذي يضربون به الثوار ويطردونهم. ويبتسم الكأس... عفوا يا كأسي نسيت، باسم القمر نعطيهم

الصكوك الرخيصة ليعلقوا البلاد من نهديها في الساحات العامة.

بكل صدق نحن من يجفف أجساد الطغاة من الدم ليضمونا إليهم بذراعهم الدّافئة، هذا من حقنا وحقهم طبعا. ألا يعلم هؤلاء أن الأرض لا تتسع للجميع؟ على سكان المملكة أن لا يطالبوا بسعادة بالغة. الملك هوار بن أوريغ بن برنس الوحيد الذي له الحق في أن يحلم.

تبا للفارس بوكوس. كم أكره الفرسان، كفاك قفزا يا جاسوس الرومان، وكم أكره صوتك الحزين يا نومينسا أرجو من الله أن يكون زوجك ميتا كما أخبرنا...

وقبل أن يكمل التيديت أمسناو كبير جماعة الاثني عشر حديثه تفاجأ بدخول لاميا ترقصُ، وتغمره بوابل من القبل كعصفورة جائعة وتغني:

تنفس

أغلق عينيك

سنبدأ

تشبث بجسدي وإلا ستغرق

لاميا هائجة، أطلقت شعرها أطلقت نفسها وأطلقت أنوثتها. تميل بأصابع قدميها إلى الأمام وركبتها عارية، ترخي كتفيها ثم تنزل لتسقط بهدوء على المسكين كبير جماعة الاثني عشر، لا أحد يعلم ماذا كان يحصل له حينها وهي تضمه.

وبعدَ أن شنت غارتها تلك، سحبت حربتي صدرها من وجهه الذي تداعى واشتعل وانطفئ كالجمرة أمام لفة خصرها واهتزاز وركيها بوتيرة سريعة أمامه.

ولتعذبه أكثر أخذت تتلوى، أثنت ظهرها رفعت ساقها اليمنى، ورأسها يتأرجح إلى الخلف، وفتحت يديها النحيلتين لترقصا وحدهما وتناديه، ثم بدأت تنزع ملابسها ببراعة امرأة مثيرة. لكن ...بعيدا عن هذه الحرارة التي أشعلتها "لاميا" بحركات جسدها الساخن .. في أعلى الجبل يحصل أمر غريب أمدياز جن.

خلع ملابسه ورماها على الأرض يقف كالأبله لا يدري ماذا يفعل، منظره يبعث على الضحك كل جسده مطلي بالزيت.

يحمل أداة حادة ويعض شفتيه بوحشية كأنه سيأكلهما، ويهذي في آنٍ واحد!!

ـ سأقتلك الأن قبل طلوع الصباح بهذا الخنجر ولن تتمكن من معرفتي. وضع أمدياز خطة مضحكة جدا. دهن جسده بالزيت لتنزلق كل يد تريد أن تمسكه. لكنه على ما يبدو لا يفرِق بين أن تكون لصا أو قاتلا! هذه الطريقة يستعملها اللصوص الأغبياء مثله عندما يقومون بسرقة قصر أحد الأمازيغ الأغنياء ظنا منهم أنّها تساعدهم على الفرار.

تهيّأ التيديت. بدا متماسكا، يده صلبة ترفع السكين إلى الأعلى ثم إلى الأمام وعلى جدار الكهف نحت بخط التيفيناغ الأمازيغي اسم "أمسناو" كبير جماعة الاثني عشر

- "اليوم نسجل اسمكم في قائمة أسماء القتلى"

قالها ببرودٍ مخيف لا يبشر بسلامة عقل هذا المعتوه الذي قد يقوم باغتيالات دينية وسياسية في المستقبل تزعزع أمن تماجورت.. وتسبب وجعا وجثثا وفقرا، وتفتح الطريق أمام وحوش عاصفة لتهاجم نوميديا فتُدخل البلاد في حالة فوضى ودمار. ثم ركض في اتجاه المغارة العليا وهو يردد بهستيريا لعينة:

-ستموت يا "أمسناو" القذر، سأبيدك في جحرك أيها الثعبان الأسود.. ستموت يا "أمسناو" القذر سأبيدك في جحرك أيها الثعبان الأسود.. لكنه فور بلوغه الكهف المدوَّر المليء بالثقوب من الخارج والذي يشبه وحشا رؤوسه عديدة، أصبحت خطاهُ مترددة وبات يموء بلطف كالقطة أمام الأحجار الحادة المنتشرة أمام فوهة المغارة التي تشبه الأنياب.

-سيدي الموقر "أمسناو" يا كبير جماعتنا أنا التّيديت أمدياز سامحني لا تلعنّي على تجرئي. اخرُجْ... ألا تعلم ماذا يحصل؟

لم تعد هناك حياة في المملكة. يا ويلنا من هذا الفراغ "مات الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" مات الذي كان يحمينا..

لدغته أفعى شريرة.. ويح هذه الليلة السوداء، الخرس لفمي الذي حمل إليك نبأ موت ملكنا، لنجتمع بسرعة الشمس. أوشكت ساعة الشروق. اخرج لنبحث عن حل ولنسد هذا الفراغ الرهيب قبل حدوث الفوضى.

إستدرك أمدياز وتذكر شيئا مهما للغاية. وبعد أن كانت أصابع يده تنتحب على خده، أطلق أصابعه في الهواء وكأنّه يكتب.

-كم أنا أحمق لماذا أطرح دائما أسئلة معقدة ؟!!

الحل سهل جدا.. كبير جماعة الاثني عشر يصبح ملكا إذا زار الموت "هوار بن أوريغ بن برنس" هكذا اتفقت جميع قبائل الأمازيغ عند تأسيس المملكة. وبالتالي نحن كتيديت أعضاء، نعَيّنُك يا سيدي ملكا علينا. اخرُجْ لأهنئك... اخرُجْ لأمزقك قالها أمدياز موشوشا ثم وضع يده على فمه وأغلقه. لكن على ما يبدو هذه الخطة العبقرية لاستدراج أمسناو لم تنجح، لأن كبير جماعة الاثني عشر غارق في الحب الآن مع لاميا، في قصر الملك هوار بن أوريغ بن برنس.

دخل أمدياز الكهف بحذر ولم يجده! التفّ خارج المغارة ولم يعثر عليه؟!! شكله الآن مضحك إنه ينط كالضفدعة المنفوخة وغضبه يخرج متعسرا يشبه صوت النقيق وهو يتوعده:

-أنت يا أمسناو ببساطة تستطيع أن تبيت خارج الكهف وتحقق رغباتك المحمومة وبقية التيديت نعيش كالجرذان داخل هذه الحفر طامرين أنفسنا أبد الدهر.

من أجل مَنْ نفعل هذا؟

من أجل أن تكون أنت حرا طليقا !!!

وحق القمر، أقسم بالقمر أني سأفضحك أمام جميع سكان المملكة وأدعو بقية التيديت لمحاكمتك وقطع يديك وتمزيقك. انتظر حتى يطلع الصباح فقط. بيننا النّهار أيها الثعبان الأسود ووصول أول خيط من أشعة الشمس إلى الأرض. سأنزل الساحة الحمراء أمام الجميع سأقضي عليك. لكن هل سأنزل هكذا ؟؟ تذكر أمدياز أخيرًا عورته وهو ينظر إلى بطنه الكبيرة العارية،

المليئة بالشعر وقدميه الحافيتين الصغيرتين المنتفختين. كم هما مقززتان. أظافرهما طويلة مقرفة ومشحونة بالقذارة. التصق الغبار بجسده فأصبح يشبه خنزيرا تمرّد في الوحل. قال بغباء من فعل بي هذا؟؟ ثم ركض مسرعا إلى مغارته.

أطلقت الشمس الضوء فحلّ النور... واحتفى أمدياز احتفاء كبيرا بكبير جماعة الاثني عشر أمسناو.

إنه يصرخ في الساحة الحمراء بأعلى صوته وينادي الكل متباكيا، فاجتمع حوله القاصي والداني ...

- لم أعد أحتمل هذا... هيبةُ جماعتنا ضاعت! يالها من نهاية !! يالها من نهاية !! لم أكن أتوقع أن يأتي يوم وتحدث مذبحة كهذه في حق التيديت، كيف سيحترمنا الأمازيغ بعد هذا اليوم؟ أين نخبئ وجوهنا؟!! أندفنها في الرمل؟! أُعفوا عنا يا سكان تماجورت، وابحثوا عن كبير جماعة الاثني عشر أمسناو. أين كان ليلة البارحة؟؟ ليلة أمس لم يبت في الكهف!!

لا تحاسبوا بقية التيديت بإثم هذا المنافق الكبير، فبينما أنتم في أماكن دافئة نحن بين قضبان الصخور نشتعل من الحرارة، ونرتعش من البرد في تبتل وتأمل بحثا عن الحكمة.

حاسبوه هو وحده الحكم واضح. أي تيديت يخالف شرائع الأمازيغ، ويظهر للناس أو حتى يقول كلمة بعد غروب الشمس يُقتل.

- "ماذا تقول يا أمدياز ؟" قال التيديت "أميزيان"، هذه التهمة خطيرة جدا.

تكلم باقي جماعة الاثني عشر بصوت واحد، بل اتهام قاتل أمدياز:

-أنا لا أنطق عن هوى، من رآه منكم يصعد الجبل بعد غروب الشمس أو ينزل من الجبل بعد شروق الشمس؟

نظر التيديت إلى بعضهم مبهمين وغير مصدقين لأنهم فعلا لم يشاهدوه يصعد أو ينزل معهم!

-لا تنظروا إلى بعضكم هكذا أجيبوني؟

لم يجبه أحدٌ، إلا أمزيان قال مخاطبا المتجمهرين من سكان المملكة والذين عمتهم الفوضى والحزن والغضب فبدأوا يصرخون منددين:

-هويتنا لا تسرَق لن نسمح لأحد بتشويه معتقدانا أو الاستخفاف بطقوس التيديت التي نؤمن بها. نريد رأس كبير جماعة الاثني عشر. سنأخذه جثة إلى المقبرة حتى يكون عبرة لقرون طويلة من بعده. لكل تيديت منافق مثله اِدَّعى التوبة أمامنا وهو فاسق.

-لحظة.. لحظة.. أرجوكم ..أعلم أنه من حقكم معرفة الحقيقة والانتقام من المرتدين عن عقيدتنا لكن.. بدل وقوفكم هكذا فلنبحث جميعا عن الحقيقة معا، لنجد أمسناو أولا.

وما إن قال أمزيان كلمته حتى انطلقت مظاهرة كبيرة ثابتة الخطى بدت أنها غير مترددة في تمزيق كبير جماعة الاثني عشر مهما برر وقال. وأمدياز يتبعهم بكل شهية واطمئنان. يمشي خلفهم بمكر وبأسف شديد تبرأ من فعلته وقال كالشيطان...

-لقد قتلت نفسك بنفسك أنا لم أقتلك، إني بريء من دمك.
لكن من سوء حظه أن هدوءه لم يستمر طويلا وسعادته لم تتشبث به أكثر، لأن الملك هوار بن أوريغ بن برنس خرج من قصره مسرع الخطى ليقبض على هذه المظاهرة، وينقذ روح كبير جماعة الإثني عشر "أمسناو" من القتل بسبب تبتله الكاذب واعتدائه على المقدسات الأمازيغية. لم يفعل "هوار" هذا حبا في التيديت، إنما تدخل حفاظا على ملكه من الهروب، كان دائما يقول في نفسه أنهم مخلوقات تنقصها الحكمة، بسبب عزلتهم الأبدية وابتعادهم عن العالم. استغلهم الملوك عبر التّاريخ لشيء واحد لا غير. ممارسة السحر علىالشعوب حتى لا يحرم سكان القصور من قصورهم، ويحرم المفرومين بيد السلطة من أن تطفو أحلامهم على سطح الماء.
وقف الملك هوار بن أوريغ بن برنس بوجه المظاهرة وقال، كما الطاغية:
-بلغني..أمر صخبكم. ما بكم تهذون كثيرا باسم الموقر "أمسناو"
ها أنذا الآن.. وأشهر سيفهُ ...لن يبقى أحد منكم حيا، إن لم تخبروني من الذي يقف وراء التسيب؟
-تسيب ماذا يا ملك الأمازيغ؟ هل أخبرك سببه أم أنك تعلم ولاتعلم؟ إن كنت تعلم فرحيلك قد بدأ منذ الآن؟ وإن كنت لا تعلم ... ؟ فكيف تحمي نوميديا من وقوع المآسي وأنت عاجز أمام الذي ابتلع مقدساتها ؟!

كلام أمدياز شديد الأذى حطم أعصاب هوار الذي فقد السيطرة على نفسه بعد أن أحس بالإهانة. بالأمس بوكوس الفارس كسر هيبته أمام سكان المملكة واتهمه بكل جرأة أمام الجميع أنه صديق الرومان الذين يدعونه ويدعونهم، واليوم هذا الأحمق..؟!

قلب شفتيه بوحشية، وبكل تهور أمسك أمدياز من كتفيه. جذبه نحوه بقوة شديدة:

-كيف تجرؤ وماذا تقصد؟ أخرسْ لسانك وإلا قطعت رأسك الأن، ولطخت يدي بدمك القذر، أيها القذر..

نفض أمدياز السمين يدي هوار بن أوريغ بن برنس عنه بكل برود ورد عليه بحرارة بالغة:

-كيف تجرؤ أنت أن تهين تيديت بهذه الطريقة وتهدده بالقتل أمام الجميع؟! لقد أتيت منكرا كبيرا بصنيعك المشين هذا، أهنت مجلس الاثني عشر، وفقدت شرعيتك كملك نزيه يحترم قداسة الذين وهبوك ما أنت عليه الأن، من أمجاد حكم مملكة الإنسان الحر.

استمر التيديت في شجاعته والتفت إلى المتظاهرين الكثر وتكلّم كلامًا طويلا بعث الذّعر في قلب الملك الذي بات مقيد اللّسان. قال أمدياز وكأنّه ليس هو .. لم يكن يقفز بارتياع كعادته أو يتكلم وقلبه محطم، حتى صوته تغيّر وكأنّ الحكمة أينعت في فمه و لم يعد ملطخا بالقهر أصبح سفسطائيا ماهرا فجأة..!

لم يمسكني أحد من أذني ويجبرني على قول ما سأقوله لكم الآن:

ـ أيها الأمازيغ تهيأوا للتغيير، افتحوا صفحة جديدة. إذا واصلتم خوفكم هذا ستعيشون في بحر من التعاسة ما حييتم. ألا تنظرون ؟! انظروا لم تعد هنالك مكانة لشخص يفهم داخل مملكتكم، وهذا ما مكن جسد أمسناو الإنساني القذر من الصعود إلى الجبل المقدس وتدنيسه، ليصبح جسدكم تفاحي وكي لا تصابون بالدهشة بعد اليوم إذا مر أمامكم مقدس. التيديت امتداد للطبيعة وما ابتعادنا عنكم في الليل إلاّ لنحرسكم ونظل يقظين مع الإله. نحن نبعد عنكم كل شيء. وكل شيء ممكن في الليل ... أفهمتم الآن لماذا حلت علينا لعنة بغلة القبور التي تصطادكم ليلا. لأن ذلك العبثي أمسناو لا يدرك مخاطر الليل ولهذا ترك المغارة مهجورة وستبقى مهجورة إلى الأبد، ولن يراكم القمر حتى لو كنتم تعبدونه ما دمتم توكلون أمركم لأناس غير مقدسين. لملكٍ يعبئ مئزره بعربات الخبز والموتى، ومجلس إثني عشر أقسم ألا يحدثكم إلا في الضوء وأن يقضي ليله في العبادة. لكن كبيره منحرف! لست هنا لأخيفكم وأحجب عنكم ضوء القمر اللطيف. أبشركم، الإله ثابت ولا شيء في الحياة يستمر في الظهور ويأتي فجأة. لكن إذا أردتم أن تُبعدوا عن مملكتكم الحزن والانكسار وألا يغتصبكم الجوع من جديد، أنفضوا الغبار عن هذا المجلس وأعيدوا تشكيله من جديد، ولا تنتظروا معجزة ودماءكم متجمدة. كل رسائل التيديت أمدياز المليئة بالزهور والتي دسّ داخلها السم سقطت

في الماء بوصول هذا النبأ الطائش من فم لاميا المذعور. جاءت تركض وتصرخ من بعيد...

الموقر أمسناو مُزّق إربًا، إربًا. تنكامرت نسمضلن أكلت جسد كبير جماعة الإثني عشر.

على ما يبدو أن الأشياء الغريبة والرهيبة لا تغلق بابها في وجه هذه المملكة الأمازيغية، فهنالك أيضا سر قديم ملعون يهيئ نفسه للظهور.

من هذا الذي يهذي بهذه الأشياء الشريرة؟

«اقتل متى رغبت فى ذلك، أمنع البقرة من دَرّ اللبن، أجعل الآخرين غير قادرين على الإنجاب، أقتل الأجنة فى بطون أمهاتهم... اشربوا دم الصغار واصنعوا منه حساء، أخبزوا فى الأفران لحومهم، اصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب».

لا تتزوج ولا تنجب وانغمس فى اللذة مع الآخرين، من يضربك على خدك فاضربه بيديك على جسمه كله...

هذا الفارس بوكوس لا يعقل؟ ماذا تفعل؟

يداه تنزلق في شعر تيديت ثم تنزل تحت برنسه لترفعه. يعريه. التيديت مقوس الظهر، بوكوس يحشر ركبتيه بين ركبتي رجل مثله لا يعقل. وبسرعة يحل حزامه. أخرجه. خفض نفسه عليه. ثم دفعه فيه. سحبه بقوة من فردتي مؤخرته ليدخل بشكل أعمق. وبدأ يعلو ويهبط فوقه والآخر يبتلع ريقه بصعوبة تبا له، إنّه يرهز ببطء ويعضه بأسنانه الجائعة كأنّه يأكل لحمه،

والتيديت رأسه محشو في الأرض ما هذا الرجل المعطوب؟ لو كان بوكوس يقبض على امرأة لما شاطرته الحب هكذا؟؟!!
ازدادت حرارة الفارس فجأة فأصبح يرغي رغاء كرغاء الجمل، دفنَ وجهه في رقبة هذا الشاذ وقذف... ثم دفعه بعيدا عنه. أخرج أيره، وارتخى كليا...
التيديت أغمى عليه كأنه كان بين نابي أفعى عضته وقذفت سمها داخل أحشائه فقتلته.
هذا المكان مظلم جدا جدا كأن أحدا أخذ مقصا وقطع الحركة. داخله، طابعه جنائزي. قاعة كنيسة سرية مبنية تحت الأرض، داخل أعماق بئر أي شمس تحاول الوصول إليها وإضاءتها، عليها أن تشتري كفنا وتموت لأن ملك العتمة قوي جدا هنا، *لوسفير لا يقبل شيئا في ضوء النهار.
بوكوس الأن عاريا، وسط دائرة مرسومة بالدم الخاثر تحيط بها من الأركان الأربعةِ، أربع دوائر، ومرسوم داخل كل دائرة نجمة خماسية... إنّه يقفز بين الدوائر يرقص رقصة حمراء وينشد ترانيم:
"يا سيدي أنا أمشي معك،
لا تكن حزينا،
لطخت لك الجدران،
قطعت اللحم،
نبشت القبور،
ذبحت الأطفال.

احتسيت الدماء على الريق لأسقيك،
اظهَرْ وستكن سعيدا، اظهر،
اظهر دعني أرى قرونك..."
ماذا يستدعي بوكوس داخل هذه الغرفة المظلمة المرسوم على جدرانها رموز كريهة تدعو للخوف والصراخ. رأس كبش فيه عين واحدة. وأجساد عارية لبشر وحيوانات مملوءة بالسكاكين في أوضاع مخلة بالحياء. فيها مذبح مغطى بألف ليلة وليلة سوداء، وكأس مليئة بالعظام البشرية، ونجمة لسيد العتمة ذات الأجنحة الخمسة، وديك أسود الريش مذبوح وبوكوس بجانبه يحمل جثة طفل صغير مصلوب وضعه على صليب منكوس ثم أخذ يصرخ:
ـ أيها التيديت استيقظ أين العصا القديمة قم بالتضحية؟
ومن شدة الرقص والدوران والقفز يصاب بالإعياء يسقط ويستسلم للنوم. و يا ليته تنفس بحرية ونام، وحلم برؤية وطن جميل عندما يستيقظ، يا ليته كف عن الحلم قبل أن يرى لوسفير الشرير الذي علمه سرّ المذابح. وماذا يفعل حتى تنهمر الدماء بغزارة، وكيف يكون ساحرًا يكسر قلب العاشقات باكرا بعد أن ينوّمهن تحت ضوء القمر ... لكنه باع نفسه، فهوت روحه، وسيظل ينزل ويهوي هلعا وحزنا من فضاء بعيد وبعمق شديد في الخراب الذي سيحدثه.
سيرمي كل ما تطاله يداه في هذا البئر، سيملأ البئر بالجثث.

والبراري برجال يشهرون سيوفهم في وجوه بعضهم البعض، فلا يعلم القاتل لماذا يقتل أو القتيل لماذا قُتل، ويستدير نقيًا أبيض كأنه لم يفعل شيئا وفي قلبه حقد متفشٍ منذ زمن بعيد على الآدمية التي رآها قبيحة وكريهة وشريرة. سيحرق الطين الرخيص الذي تحوّل إلى بشر لا إلى جدران مثلما كان يظن، وآذى غروره لأنّه لم يفهم عمقه فتتسبب بلعنه. لن يترك هواء ولا فراشة، ستتناثر الأزهار ويتحول البشر إلى آلة كتيمة وقاسية ويموت الناس الرّائعون ولا تبقى إلا الوحوش في الفلاة وحدها.

باع نفسه إليه ليجلب الوجوه النتنة والموتى والسجون والأوبئة. ولتغمض البشرية عيونها على الضوء. فتصبح حياة الأحياء مميتة وتتحول الابتسامة بين الشفتين إلى هيكل عظمي. و لا يبقى إلا هو في فناء هذا العالم يدور والناس حوله عاجزون لا يستطيعون الهروب من بين يديه فيعظمونه خوفا.. هكذا وعده لوسفير في أحلامه بالسيطرة على العالم مادام العالم حزينا جدا.

الفصل السادس

أصبح الميتون كثرا في تماجورت. ما بال الكل ينهار؟ هنالك أمّ تَبكي، الأم *تيموما تُبكي الحجر. تقبل باقي أشلاء ابنها الصغير وتصيح كان على ابني ألاّ يموت صغيرا، من هاتان اليدان القاسيتان؟ لمَ فعلتا هذا في جسد ابني ومن هذا الوحش الذي عذبه. فعلا هذه اليد التي تمزّق طفلا صغيرا وتقطع رأسه وتقتلع جلدته متوحشة جدا. من يمدّ يده الكافرة ليشنق أفئدة الأمهات ويحرق أكبادهنّ لا يمكن أن يخرج إلا من المدافن. وهو ذباب قذر لا ينتشر فوق قطعة حلوى ليكتب بلذتها الرسائل لحبيبته بل ليوسخها ويجعلها تتعفن. هذا الشيء الهمجي ثقب قلب الطفل بسكين مدببة! قطع أجزاء من لحمه، وترك جروحا غائرة قاتلة على رقبته، اقتلع حتى عينيه كسر قفصه الصدري وخلعه. أيّ بطاقة تعزية ستقبلها هذه الأم التّعيسة؟!! حاولت مجموعة من نساء المملكة ألا تتركنها وحيدة. حاولن قدر المستطاع أن تبعدنها عن هذا المشهد الفظيع، باللين والدعاء لها بالصبر وبالقوة. أبعدوها بصعوبة وهي تندب وكأنهم يسرقون ابنها منها.

الجثة مشوهة جدا. من دمرها، لم يدمرها بلطف رماها بلؤم لتطفو كالخشب فوق سطح الماء فلوثت قلب عين مباركة تقع في قلب القرية القديمة تماجورت. والغريب أن من قتل ونكّل رمى الجثة بثقة وجنون دون أن يتفطن إليه أحد!!!! أصبحت العين صامتة بعد أن كانت تنبض توقفت عن الجريان.

ما هذه اللعنة البائسة وماذا تريد، فالماء رمز للحضارة وكلما رأيت بشرا وحيوانات وأشجارًا بخير، وأناسا يصنعون معمارا جميلا وحضارة قوية، تأكد أن لديهم مياها وينابيع تتدفق بقوة، تمنح الأغصان والتراب والجبال والقصور والأكواخ وبيوت الفلاحين والبذور والإبل والأغنام والتجار والقوافل، الأمان...فالماء يطفئ القحط.

فعلا هذه اليد التي فعلت هذا لا تصلح للحب تصلح فقط للإبادة؟! ضربت المياه بهذه الطريقة لتوجه رسالة صارخة لشعب الأمازيغ.. قررت لكم الموت.

لاميا تندب فوق رأس المقتول، كبير جماعة الاثني وتنوح عليه:

-أمسناو سأفتش عن قاتلتك. ولو كنت داخل بطن الحوت سأخرجك يا بغلة القبور...ابحثوا عن نومينسا أكيد أنها كانت نائمة ليلة أمس في المقبرة.. الخطأ خطؤكم قلت لكم اربطوها. لماذا أبعدتموها عن أنظاركم يا أهل المملكة ولمْ تراقبوها بحذر؟ لِمَ لَمْ تراقبوا كل خطوة تخطوها؟ صدقوني هذه الصيادة الملعونة لا تشبع وستأكل البشر وحيواناتكم الأليفة...

من يقطع رأس قطةٍ، إلا شياطين ملعونة؟ لماذا لا تصدقونني وتتشبثون بها؟! أيها الملك "هوار" وحق القمر إنما أنت تتشبث بموتنا وتحميها. كل الذين رحلوا عنّا بسببها.

لاميا.. هذه دائما تحذر من الموت تستغل كل لحظة شؤم على المملكة لتدعو صراحة بالقبض على نومينسا. والغريب في الأمر، أن هذه المرأة آخر من وضع يديه على صدر أمسناو بطريقة إباحية. ألم تكن ليلة أمس ترقص له ومارس معها خطيئته الأخيرة ؟! ربما تريد أن تغلق عين الناس عن الحقيقة وعنها لأنّها هي الأرملة السوداء، وبغلة القبور الحقيقة لا شيء واضح حتى الأن ...

هذا اليوم مليء بالأحداث السيئة في الصباح الباكر أشعل التيديت أمدياز انتفاضة عنيفة على أصحاب البطون المقَعَّرة، وكشف أن المكان الطاهر يمكن أن يحتوي أناسًا تفوح منهم رائحة قذرة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فلم تكد تمر ساعات قليلة حتى جاءت لاميا تحمل خبر موت كبير جماعة الاثني عشر أمسناو. كل سكان المملكة يتحدثون عن الشيء اللعين الذي تمطر مخالبه دما. ذاك الذي يمزق الأجساد ويقطع الرؤوس، من أين جاء؟ ولماذا يوزع القتل؟ ويقوم باغتيالات تقلبُ الموازين؟

يسأل طفل صغير تشبث بأمه من الخوف:

-أمي من هي تنكامرت نسمضلن ؟

فتجيبه، واصفة إياها، محذرة:

-إنّها أرملة شريرة، أسنانها جائعة، ووجهها لطيف، تبدو مثل امرأة فاتنة تخفي خلف ملابسها نهدين متدليين، كلاليب تقطع بها رؤوس الشهوانيين. قدماها تشبهان حوافر الماعز أو الجمال أو البغال. تكره الرجال وتطلق عليهم أغانيها المثيرة فيسرحون معها في عوالم تخييلية. تنظر بحسية وشراهة إلى اللذة، وعندما ترتفع درجة حُمّاهم ويمتلئ لعابهم بالجنس، ويفقدون وعيهم. تخيّرهم البغلة أن تمتطيهم أو يمتطوا ظهرها وفي كلا الحالتين ستطفئ نار جوعها لتقتلهم بينما هم في أحضانها داخل مخبئها في المقبرة. إذا سمعت صوت سلاسل مرعبًا، وشاهدت أغلالاً تتدحرج وبغلاً يضرب بساقه على الأرض، فتشتعل نار مصابة باليأس، فاركض بعيدًا واهرب ولا تلتفت وراءك يا ولدي. إنّها تحب البكاء على القبور، وعندما تنهي طقوسها الجنائزية ستلتهمك كجنية في هيئة نصف بغلة ونصف امرأة فاتنة.

السّاعة الواحدة بعد منتصف النّهار، جنازة مهيبة تتهيأ لدفن كبير جماعة الاثني عشر، أمسناو. عُثر على جثته صباح هذا اليوم ممزقة بشراسة. وأحشاؤه مقطعة ومنثورة، وقد بُترت أعضاؤه الذكورية. وأثارٌ للدماء والحوافر تكسو المقبرة التي وُجد داخلها ميتا ومرميا.

بدأ التيديت مراسم الدفن، ومعهم الكاهنة ماتيا تصبغ الجثة بطين أحمر وفي يديها عشبة صفراء ذابلة تارة تشمها بأنفها بكل هدوء، وتارة تعضها بأسنانها وكأنها تدخنها باطمئنان.

سأل أحد التيديت ماتيا ما هذه العشبة؟ ولماذا تشمينها وتعضينها؟ هل جننت؟

نظرت إليه بحدة بالغة وأجابته بكل ثقة:

-عشبتي لديها قدرة مذهلة على هضم الأوجاع. قم بالطقوس واصمت.

يتبع أمازيغ تماجورت في دفن موتاهم العادات القفصية القديمة ـ والقفصيون هم أسلاف الأمازيغ القدامى ـ مع تعديل بسيط في إحدى زاويا القبر، فدفن الميت في حفرة صغيرة يجعله هدفا للحيوانات المفترسة مما قد يحرمه من الاطمئنان إذا دُنس قبره. ولهذا وضعوا أمسناو في قبر عميق، شكله من الخارج هرمي يشبه التلال، ضخم مرتفع على باقي القبور الأمازيغية. لتبقى مكانته عالية عبر جميع الأزمنة والعصور.

عند الأمازيغ، عندما يموت الإنسان فإنّه يعود لفطرته الأولى، إلى زمن السعادة. لشكله الجنيني في رحم أمه حيث تلامس الركبتان واليدان الوجه ويلتصق بصدره لينام بعيدا ويحلم دون أن تضع الحياة يديها على كتفيه وتوقظه بعنف.

سينساه اليوم من يحبه، ومن لا يحبه. وشيئا فشيئا سيتركه الزوار ولن يتساءل أحد هل هو بحاجة إلى أن يشرب أو يقرأ الأن؟ أو هل هو بحاجة أن نساعده على النهوض. فالبراكين الميتة مازالت تنظر إلينا من تحت التراب. انفجرت في وجوهنا لأنّنا لم نساعدها على النهوض...

هرب الجميع ولم يتركوا لأمسناو إلا مجرد تخاريف كهنوتية: حلي، وقشور بيض نعام وضعوها في قبره، وقالوا ربما يستخدمها في العالم الآخر.

مازلنا في جو المقابر ولا يتجرّأ أحد من تماجورت على دخول مقبرة عند حلول الليل مخافة تنكامرت نسمضلن إلا الفارس بوكوس.

ماذا يفعل عند قبر "أنير" ومن هذا المقنع الذي لا يشبه الأحياء ؟! ناوله رسالة ثم طار بين الضباب واختفى في العدم... وبقي الفارس وحده كشبح استيقظ للتو ولم تتسع لحزنه إلا هذه المقبرة. راح بوكوس يبكي ويشكو لأنير:

-قائدي إن زوجتك تتحدّث عن الحب ونار الفراق، ولكنها لم تجرّب، طعم الألم المميت عندما يُطبخ على يد أقرب النّاس إليك... سكان المملكة هم من تسببوا بضياعي. هم من طردوا الشمس من حياتي، نكران الجميل جرح مفتوح لا يشفى، لقد ضحيت وأنا أركض بين جنود الرومان كالمجنون وعندما سقطت لم يأخذ أحد من الأمازيغ بيدي، تركوني أذهب وفي عيني غزالة مذبوحة.

يا قائدي "أنير":

في حقول الدم والأسر وأنا أُعذب كنت أثرثر بحرية مع جلادي رغم شدّة العذاب الذي أذاقوني إياه. لم أُخلق خائنا ولم أختر أن تئن أرض تماجورت. قلبي لم يكن أسودًا هكذا .. كان يخفق بحب ويرفرف بشدّة عندما يسمع كلمة وطن. لكن هل تذكّر

وطني أصفادي الثقيلة وزمني البطيء هناك، وأنني لا أتنفس بحرية مثله، ودمي يسيل فوق لحمي، وجسدي رث ؟!. هذا الوطن كسرت أحجاره ظهري. رجاله ونساؤه، قططه وفؤوسه، سيوفه وقوانينه وثورته لم تسأل ولم تفاوض الرومان عنّي لأعود، لماذا لم يبحثوا؟!

وهبتهم خضرة دمي وبقيت جافًا أرتعش من البرد لكنهم لم يدثروني. الوطن الذي يهب أوراقه الخضراء وسادة للسفاحين، أمثال هوار بن أوريغ بن برنس، ولا يعوّض الأبطال الذين خرجوا إلى الشوارع والحلبات مقاومين استعباده واضطهاده، ليس هوية تُستحق أن نحتفظ بها.

عدت يا قائدي لأنتقم لك ولي من الذين أهديناهم الحرية وابتلعنا جحودهم. أنا بوكوس خادم المعبد لست إلا عينًا للشيطان. لا تحدثوني عن أخلاقكم الفاضلة يا أمازيغ..

سأنهي هذه الكذبة. أعدكم بأنكم ستصبحون بلا أخلاق وأنّي سأتغلّب على الإله الذي تعبدونه. يا لوسفير الشرير، أحرق السماوات التي يحتمون بها. مزقها كالأوراق. يا أيتها الفتاة الشريرة ... أيها الولد الشرير أصبحتما مثلي أشرارًا. لنعبد ذواتنا البشرية ... لننتصر على القدّيسين على التيديت. أخرجْ قرونك من الجحيم يا سيدي وأحرقهم أحرقهم ...أبدهم من الوجود. يا حيرام الشاذ، سيقدسك الأمازيغ ولن يقبلوا بعضهم بعد اليوم... لماذا نحب بعضنا بعضا ؟؟

نحن أبناء أنفسنا، أبناء ذي العين الواحدة. سنهدم ما بناه سليمان، ونبني هيكلا محشوًا بالرؤوس والحبال والمصائد. يا سيد الأحزاب لن أنكر أبدا بأنني أحببتك فلتمتد يدك الملعونة لإشعال النّار ونشر الأراجيف الكاذبة.

مدّ يدك واقطف هذه المرأة ماتيا، وهبتك جسدها. لحمها سكين حاد في تماجورت.. وسيلتُك للسيطرة.

وبينما كان بوكوس يبكي كالوحوش ويهدّد كالعواصف، رأت نومينسا شفاه حبيبها "أنير" تقبلها سمعت صوته يهذي:

"على جسد تلك المرأة ميناء مازال ينتظر نزول رجل ينهي عصر الجواسيس "

احذري يا نومينسا من ذي العين الواحدة. إنه يرسم تفاصيلها الحزينة. لا تدعيه يبتلعها قبل أن أعود. الأرض مبتلة بدمائنا وأجساد الثوار مازالت تغلي. هذا الحلم الغامض كأنّه كان يتنبأ بحصول الكارثة. فهناك في الخارج فعلا من شحذ سكينه ببرود وطعن أرض تماجورت. حقول القمح تحترق. حتى الأبقار والعصافير، الإبل والخرفان، اللوز والفستق والزيتون، لم ترحمها الألسنة الحمراء.

هذه الأراضي الزراعية التي مسّها بشفتيه النّاريتين كانت سلاحهم الذي ينتصرون به على برودة الجوع القاتل. ولهذا السبب، كان صياح نسائهم عاليًا جدًا، وبكاء أطفالهم عنيفا. لا تسمع إلا كلمات يائسة:

املئي الدلو...لا ابتعد...ستحترق...الدخان كثيف... قل لنا ماذا نفعل؟ لا نمتلك من الماء إلاّ القليل... حتى العين القريبة نضبت!! كيف سنطارد هذه الحرائق الكبيرة لن نتمكن هكذا من إخماد نارها.

أيها الملك، النّار أتت على كل شيء. حتى جذور الأشجار تحت الأرض احترقت. إنّها تأكل الأخضر واليابس ولن تترك لنا رغيفًا نأكله. كل من في المملكة حاول بيأس: الطويل، القصير، البدين، النحيل، الذكر، والأنثى جربوا كل شيء. غامر المجانين بأجسادهم داخل النار. صارعوا انتشارها لكنهم لم يصمدوا طويلا. احترقوا وأصبحوا رمادا. الجميع ضائعون ولا يعرفون ماذا يحصل؟ أو كيف حصل هذا المشهد المحزن جدا والمحبط؟ هنالك رجل يمسك رماد السنابل بين يديه وسط حقل أسود ويحضن امرأته... يبكيان بقهر ويندبان معا:

ـ من أين سيأكل أطفالنا؟! أين سنذهب؟! كنّا مهددين بالعطش، وأصبحنا مهددين بالجوع؟!

في هذه الليلة المشتعلة أظهر الملك هوار بن أوريغ بن برنس خصلة جيدة من خصال الملوك. وبرغم تخلي فرسه عنه أمام شراسة النار وشدة اندلاع ألسنتها لم يجبن. ظل يواجهها وحده في عملية انتحارية شجاعة بعدما تراجع العديد من سكان المملكة الذين أصابهم الإحباط وغزاهم العجز. فعل كل شيء لاحتوائها وأنقذ ما يمكن إنقاذه. كان يحمل فوق ظهره أكياسا من التراب ويفرشها كمطبات رملية تحمي خبز شعبه قبل أن

تخطفه النيران. وقف في وجهها بطريقة هوميرية، والأغرب أنها رغم شدتها كانت تتقهقر أمامه ..

كادت أن تحصل محرقة كبيرة ويموت المئات من المزارعين والفلاحين لو تمكن جمر هذا الجحيم الحار من الوصول إلى أكواخهم على أطراف المزارع. لولا براميل الماء الكبيرة التي كان يخبئها في قصره وأخرجها في الوقت المناسب لتساعد الناس على إطفاء الحرائق، وكانت سدا منيعا أمام تقدم النيران بسرعة، لما تمكن العديد من الفرار قبل أن تحتجزهم وتحصل الكارثة. لكنهم نسوا فتاة صغيرة بسبب الهلع وحالة الفوضى. تركوها في كوخ. أحاطت به ألسنة اللهب من الداخل والخارج. كانت المسكينة تصرخ مستغيثة لإنقاذها لكن الجميع أصابهم الصمم...

ـ لم يتجرأ أحد على إنقاذها، فلا يوجد بشر طبيعي يستطيع خلع باب هذا الكوخ ودخول هذا الفرن دون أن يدفع حياته ثمنا، إلا الملك هوار بن أوريغ بن برنس استطاع أن يمنع الموت من قطف هذه الفتاة الصغيرة وحرم أسنان النيران الشريرة من مضغها بحرارة. اقتحم الكوخ المشتعل. دخل قلب الحريق. لم يكترث لألسنة النار التي تصعد منه. ولم يخْش الاختناق بسبب أعمدة الدخان السوداء الكثيفة.

ظلت الطفلة عالقة داخل غرفة صغيرة، إلى أن تمكن من الوصول إليها بعد أن كسر الباب الملتهب بركلة عنيفة من ساقه، أحدثت ضجة مخيفة. فظنت الصغيرة أن الموت زارها.

والسقف قرر أن يسقط فوقها. أغمضت عينيها أخذت تصرخ بطريقة هستيرية... لكنه بلطف هدأ من روعها قائلا:

لا تخافي... ثقي بي... أنا هنا الأن، سأنقذك...

فأحست حينها بالأمان. واستسلمت لحضن بطلها بعد أن أغمي عليها. نجح الملك هوار بن أوريغ بن برنس في كسر إحدى النوافذ والطيران بها بسرعة فوق النيران والخروج بسلام ونجاتهما معا. بقي أهل المملكة مذهولين أمام هذا المشهد. كيف لم تلتهمه النّيران؟ لم يفهموا شيئا.

بعد ليلة مشتعلة خمدت النيران أخيرًا، لكنّها كانت قاسية. لم ترحم الأمازيغ. خلفت وراءها دمارًا كبيرًا. مزقت تقريبا أغلب أراضي الفلاحين والمزارعين، حتى مواشيهم هلك منها الكثير. وأمام هذه الطامة الكبرى التي لم ترحم أسنانها الملتهبة عنق أرض الأمازيغ اليانعة، امتلأت السّاحة الحمراء بالجميع. كل فئات المملكة حاضرون.

يطل عليهم الملك هوار بن أوريغ بن برنس. وعلى يمين عرشه، قائد الجيش الجديد الذين عين بعد موت "أنير" الغامض، يبدو منهكا وحزينا جدا، ينظر الى السماء الملبدة بالدخان بقلق وأسف شديدين. وعلى يساره جماعة الاثني عشر منكسين وجوههم حدادًا على موت كبيرهم التيديت "أمسناو". وفي سط السّاحة، العامّةُ الخائفون من الجوع الذي بات يقترب من مملكتهم. وقف الملك وقال مخاطبا الجمع محاربا سوداويتهم:

-لن أغمض عيني مثلكم على حلم متوحش كهذا...الأمم التي لا تمزق أحزانها وتعيش فقط على الصّور القديمة، عليها أن تنزل من على الحصان وتدفن سيفها... أو تمدّ عنقها لأعدائها دون مقاومة. أيها الأمازيغ يا شعبي الحر... نحن مستعدون لمبارزة هذا الشيء، نحن أمة لا تخشى الموت ننظر إليه بعينين جاحظتين. أنا لست مختلفا عنكم، ولا أتحدث هكذا، لأنّ أطواري غريبة! قوتي أستمدها منكم، لا تسقطوا هكذا لستم خرفانا صغيرة حتى تذبحكم هذه اللعنة بسهولة لا تحققوا لها غايتها. اسمعوني، اسمعوني جيدا. إذا مات واحد فينا نموت جميعا، ومادام الواحد منا غالي الثمن، تأكدوا أننا كلنا بخير، نعم ستكونون بخير لقرون طويلة...لا تخافوا من المجهول، إذا غرستم أسنانكم في هذه الأرض لن تموتوا من العطش أو من الجوع.

أثارت هذه الخطبة الثورية حماسة سكان المملكة فتغيرت ملامح وجوههم من ورقة صفراء تأخذها الريح في الخريف إلى هتافات رائعة تتغنى بالوطن:

-عاشت المملكة، عاش الملك، وطننا بخير ما دمنا نحلم.

لكن كل الأحلام الوردية والخطابات الرنانة سقطت كلها في الماء. عاد هاجس الخوف والشكّ بمجرّد أن تكلم التيديت أمدياز ببأس شديد:

-قبل أن تقول كل هذا أيها الملك أطالبك باسم مجلس جماعة الاثني عشر بكشف الحقيقة وإلقاء القبض على الخائن الذي

تجرّأ وقتل كبير جماعتنا والتنكيل بأطفالنا وفرساننا. إن كانت نومينسا هي بغلة القبور لماذا تبعدها عن عيوننا وتحميها؟ أمازلت تنتظر أن ندفن موتى جددا وتحدث مجازر أخرى حتى تتحدث وكأن شيئًا لم يحدث!

إلى متى يبقى مصير هذه المرأة مجهولاً؟ لا مجال للتعاطف هنا .. أيها الملك إذا كانت زوجة ابنك الفقيد "أنير" ملعونة، لا تبحث لها عن حلول. البارحة واليوم وغدا وفي النّهاية تبقى تنكامرت نسمضلن لن تتغير وستظل تصطاد الرجال وتقتلهم. أقول هذا أيها التيديت ليس لكي أدافع عن الذين لا يملكون قلبا، مَن يسببون التّعاسة لشعبي.. هل يهمك فعلا مقتل كبير جماعة مجلس الاثني عشر؟ على ما أظن هذا ما قلته أمس،

ردّدتَ أمام الجميع أن أمسناو عار على مجلسكم. حرضت هؤلاء الأطفال الذين تبعوك وهم يفركون أيديهم خلفك لحفر قبره. تأكد جيدا إذا أنّ من دافع عن براءة كبير الجماعة من تهورك، وبحثك عن يومه الأخير وتحريضك الكاذب عليه في حياته، سيأخذ حقه وهو ميت. سأنتقم لشرف المجلس ولتماجورت من هذا الخائن... حتى ولو كان تيديت منكم يا أمدياز.. بالنّسبة لي، تنتفي الصفة إذا اقتُرف جرم باسم الخيانة.

ما قام به الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" ليلة البارحة في الحريق، وما رآه فيه سكان المملكة من نخوة ودفاع دونما انقطاع على أرضهم وأرواحهم، فعل ما استطاع وأكثر... جعل علاقتهم به تتشابك من جديد وتتوطد بعد أن كانت مهتزة. بينما أصبح التيديت أمدياز في موقف ضعيف، لأن هوار استطاع أن

يرسم أخيرا، رغم الخسائر التي لحقت بمملكته، صورة الملك الذي لا يهدأ له بال مادام شعبه متعبا. الذي لا يهرب مرعوبا من ثورة عطشٍ وجوع. بل يحتوي المضطهدين من اليأس ويُبقي عينيه مفتوحتين على المخاطر الخارجية. ويبعد أصحاب المطامع السّوداء من حوله. الذين لا يكشفون له الحقيقة ويعوّض المنكوبين بعيدا عن ثقافة تكرار الكذب.

هذا ما فعله الملك "هوار بن أوريغ بن برنس". فتح قصره للبؤساء من سكان مملكته الذين لم يعودوا يملكون شيئا وقال: لا لأحد التيديت الذي أراد أن ينوم الناس. وجمع شعبه لحظة الضعف على القوة. لكن الصراع بين السلطة الروحية والسياسية في تماجورت، معقد جدا وكلماته متقاطعة ولن تجمعها إلا لغة السلاسل والمجازر ودفن موتى جدد كل يوم. ولهذه الأسباب واصل أمدياز تفرقته قائلا للملك ومخاطبا المتجمهرين في آن:

-عوض أن تهدّد مجلس جماعة الاثني عشر وتمزّق وحدته أنصحك بأن تتذكر دائما أن الشعب اختارنا لنختارك. لا تغامر بالتضحية بنا حتى ينجو ملكك، لن تنجو تماجورت من دون مباركتنا فنحن لسنا بشرا كباقي البشر العاديين.

أيّها الملك هل يمكن لك أن تفسّر لسكان المملكة لماذا تجرّدت النّار من عواطفها الحارة وابتعدت عن أحضان أراضيك الخصبة ولم تقترب ولو إنشًا من مزارعك ومواشيك الكثيرة، أنت لم تخسر ولو شجرة واحدة!!

لماذا لم تداهم النيران ملكك كما داهمت باقي أراضي الأمازيغ وأملاكهم؟ هل كل هذا صدفة ؟!

تدّخل هنا التيديت "أمزيان" وأغلق هذا الحوار العقيم قائلا:

- كفى. هل أصبحنا نقاتل بعضنا البعض؟ من سيقاتل إذن عدونا؟ أنا أعرف الحقيقة، قداسة التيديت أقوى من رعب تنكامرت نسمضلن. ووجه القمر الجميل الذي نعبد نوره، سيكشف وجهها السيء لنا. وهذا الشرير الذي خان وطنه وأحرق أرضه لن يفلت من قبضة ملكنا .

نعم أتفق مع حضرتك أيها الموقر أمزيان كقائد للجيش. سنجعل من الانتصار الكبير لهذا الخائن هزيمة صغيرة لنا، واعلم حضرة الملك بأني بحثت وتتبعت مع جنودي خطوات النار الأولى التي اندلع منها الحريق الكبير. تقصينا أثرها وغطينا جيدا، جيدا كل المساحات التي افترستها النّيران، فوجدنا أثارا لمعالم جريمة واضحة. بقايا مشعل، وأحجار صوان تحمل أثار قدح النار منها. وهذا يعني أن الطبيعة بريئة من دماء أرضنا.. هذا رأيي بالنسبة لأمر اندلاع النّار. أما بالنّسبة للتيديت أمدياز، أحذرك أنت والإخوان جماعتك لن تلتهموا عواطف الجيش كما التهمتم براءة شعبنا الذي ينظر إليكم كقديسين جميلين. نحن جيش نوميديا الأمازيغي لا نقدس إلا أرواح أجدادنا التي تسكن الجبال والمرتفعات والمغارات. يقلقنا ما يقلق الفلاحين إمساك السّماء وطول الجفاف. سقوط المطر يشرح صدورنا فتورق أغصان القلب برؤية قوس قزح. لأننا كالشّعراء نحب نباتات الزّينة وأن تأتي الأزهار كسرب من

العصافير، وأشجار الصفصاف كالولد الجميل تغطي وجوه المقابر والتماثيل القبيحة حتى لا يموت السهل فتحتل أعشابكم الطفيلية الغابة. أبقوا ضجيجكم بعيدا عمن يحمون هذا الوطن. ودعوا الجيش حرا يتحرك برشاقة ليبعد الأشياء الخطيرة في صمت وهدوء واكذبوا.. اكذبوا بعيدا عنه سيصدقكم الشعب.

لم يتجرأ أحد من جماعة الاثني عشر على الانتفاضة أمام كلام البيان الحاد لقائد الجيش الجديد. فأشار الملك هوار بن أوريغ بن برنس للجميع أن يتفرقوا.. ذهب كل واحد في طريقه ثم نزل من كرسي العرش كأنّه ينزل ببطء من فضاء بعيد. مشى في اتجاه الخراب الذي أحدثته الحرائق واجتاحته النيران ممسكا حفنة تراب في كفه محاولا احتوائها وهي تسيل من يديه كالأحلام.

الملك وسط سهل احترق فأصبح نقيا من الحياة. ينظر بعمق شديد لهذه البراري ويتحدث معها.. قال وكأنّه يعزف:

"يا بلادي الجميلة

أينما كنت

سأتفتت

وأتطاير

أشلائي لا تبحث عن الموت...

جسدي يؤدي إلى جميع اتجاهاتك.

الفصل السابع

وسط كل هذه الأحداث والوجه الجميل الذي ظهر به الملك، هنالك وجه آخر له داخل القصر، قاس سبب الوجع لنومينسا. أقفل عليها الغرفة وحرمها من الخروج ورؤية العالم. فعلت نومينسا كل شيء صرخت ونادت واستجدت حاولت تمزيق الباب الخشن بأظافرها الطرية. لكنه أمر اليوم فقط الكاهنة ماتيا بعد انتهاء اجتماعه مع سكان المملكة في السّاحة الحمراء، أن تضع لنومينسا وشمًا يربط بين ذقنها وكلتا أذنيها؟

هذا الوشم يرسل رسائل ويحمل تعبيرات ودلالات لا يفهمها إلا الأمازيغ، يعبر على شارب زوجها الرّاحل. وأنها امرأة أرملة.

فالوشم عند الأمازيغ ليس مجرّد رسومٍ عبثية. بل ذاكرة شعب له تاريخ وثقافة متفرّدة لا يغيب عنها الإبداع والخيال. تلك الخطوط الخضراء على جبهة تلك الجدة تناسب عيونهنّ الحادّة إنّها ترسم نخلة باسقة على الجبهة رغم الرمال المالحة. والنّجوم تناسب حمرةَ خدود الجميلات فكأنها سماء ضحوك أو ليلة قمراء، وكل نجمة تشبه حرف التّاء الذي يؤكد أنّ "الجميلات هنّ الجميلات" جميع الوشوم تحيل إلى ارتباط الإنسان بالطبيعة وترفع أيضا المعنويات.

فوشم الأفعى مثلا يدل على القدرة على الشّفاء من الأسقام ويعطي الأمل لكل ذات آيلة للسقوط. والمرأة التي لا تنجب يوضع على جسدها، في عنقها أو يديها أو قدميها، في صدرها أو بطنها رسم نبتة أو عنكبوت، لتنتصر الخصوبة ويهرب النحس الذي يطاردها.

الأمازيغي يكتب تاريخه على جسده وينظر إليه بصمت يشاهده ثم يحلم. يكتب رغباته على جسده ليشم الروائح الحادة الحائرة المترددة والمسكينة ويبحر معها تاركا وراءه من يعطل نزوع روحه إلى الإنسانية.

أخيرًا فُتح الباب. ومع دخول الكاهنة ماتيا الغرفة، انهمر المطر في تماجورت ليخفف آلام وجه الأرض المحروقة المشوهة. فرأت نومينسا تئن كطائر جريح وحرارتها مرتفعة كفنجان قهوة ساخن ورائحة الحزن تفوح منها. حثت الكاهنة خطواتها وقالت لها وكأنّها تحاول إنقاذها:

توقفي أنا أراك.. نومينسا. قلبك البري لا يسع حبًا صغيرًا لأنّ شرايينه تقتله، شوارعه المهجورة غابة بعيدة لن يدخلها إلا رجل شجاع ينام على صدرك.

كطفل صغير لم يحفظ دروسه، لم تهمس نومينسا ولو بكلمة واحدة. بدا إدراكها ضعيفا، لم يطالب صوتها كالعادة بالحرية، أو يهدد بالموت. رأسها يتدلى نحو الأرض كأنه في طور السقوط، لم تعد عيناها الزرقاوان جميلتين تنظران إلى السماء. اختفى ذلك الإله داخلهما.

جلست الكاهنة ماتيا بجانب نومينسا وأخرجت من تحت الأسثناو (حزامها) إبرةً، وكحلا، وبقايا سُخام محروق، وماءً مملّحًا وأعشابًا للتعقيم. فهمت نومينسا أنّها جاءت هذه المرة كواشمة. والواشمة عند الأمازيغ تُنتَقى لقدراتها الخارقة، ولطالما قالت الكاهنة ماتيا ذلك. بأنّها ترى ما لا تراه الأبصار العادية. وفعلا كل سكان المملكة يصدقون أنّها تمتلك قوى عجائبية مسخرة من عالم لا يرونه. تمنحها طاقة غير طبيعية تمكنها من علاج الميئوس من علاجهم، وتطهير المصابين بمس الحسد والعين الشرّيرة وفكّ السّحر عنهم.

سلمت نومينسا وجهها إلى أصابع الكاهنة العشرة لتوشمه وتكتب عليه شهادة موتها إلى الأبد.

المطر ينزل باندفاع في الخارج دونما توقف. ليته نزل عند اندلاع الحرائق ليكتب على أعمدتها توقفي عن الاشتعال. خزائن الأرض ملك للأمازيغ يجنيها الفلاحون لا تغضبي وتحرقيها.

ماذا تفعل لاميا مع الفارس بوكوس؟ يقهقهان، ويرقصان على وقع زخات المطر داخل كوخ منزو فوق تل بعيد في أعماق الجبل.

-ألم أقل لك أن الحياة ستكون لذيذة لقد خدعت تلك العجوز. في منتصف الليل ستسلك شقيقتك نومينسا دروبا وعرة لرؤيتي عند الكثيب الأحمر. وبمجرد خروجها من هناك وهي تحلم كساقية ماء تبحث عن مجرى، استغلي غيابها بسرعة. افتحي

يديك. واطلقي صراخك. ولولي هكذا في وجه هوار بن أوريغ بن برنس:

"هل أصبح قصرك ملجأ لمن حوافرها تعزق قبورنا إلى الأبد؟ أيها الملك، شقيقتي نومينسا امرأة شريرة، ألطف أحلامها أن تنظف قبرها أو أن تصنع من جماجمنا دورقا للنبيذ."

-يجب أن توريطها يا لاميا. هذه هي الخطة. أحدثي جلبة كبيرة قولي: "لن أتوقف حتى أراها لن أغادر حتى أتأكد أنّ شقيقتي مقيدة في مكان لا تستطيع الهروب منه، فتنكامرت نسمضلن لها قدرة تسمح لها بأن تقفز من الشرفات. عظامها قوية وصلبة لا تنكسر. حتى المطرقة والإزميل أو الخنجر العادي لا يؤلمانها، لا يحركان ساكنا منها.

هنا سيضطر هوار بن أوريغ بن برنس خاصة بعد ما سمعه هذا الصباح من فم النتن أمدياز، أن يسمح لك برؤيتها قليلا من خارج الغرفة. وحينها أكون أنا اصطدت جرذا من جماعة التيديت وبعد أن أتفنن في تعذيبه وقتله، يكون مسرح الجريمة تنقل واستقر في قلب تماجورت.

يضحك بوكوس ضحكة قبيحة كريهة فاسدة شريرة:

ـ ستصلين إلى مرادك أخيرا يا لاميا. تخيلي معي هذا المشهد الرّائع.

يفتح هوار باب الغرفة: أين نومينسا؟ ليست موجودة بداخلها. وهنالك في الخارج جثة تيديت مزقت أعضاءه الرجولية. من يفترس الرجال ويبتر أعضائهم بهذه الطريقة؟!

كل الأمازيغ يعرفون أن تنكامرت نسمضلن الأرملة الملعونة الوحيدة التي تفعل هذا، انتقاما لنفسها ولغيرها من النساء اللواتي تسبب لهن الرجال بالعذاب.

ضحك بوكوس مرة أخرى بسخرية في وجه لاميا وقال لها أنت تعرفين ما عليك القيام به هنا. لكن على ما يبدو أن لاميا استيقظت من لحظة الفرح والتشفي هذه. نزلت دمعة واحدة من عينيها تحمل آخر قطرة حب ظلت محتفظة بها داخلها لأختها. وقالت لبوكوس:

ـ لا تسئ فهمي.. أنا أكرهها جدا. ـ ثم مررت أصابعها على صدره تودعه متوعدة ـ هذه أخر ليلة لها... ستموتين صغيرة يا نومينسا ولن يرثيك إلا الأغبياء.

الكاهنة ماتيا وقعت في المكيدة فعلا. خروج نومينسا من القصر ومغادرتها غرفتها هذه الليلة سيكلفانها ثمنا غاليا، أحيانا نحفر قبر من نحب بأيدينا ونحن نظن أننا نبحث له عن السّعادة هذا ما ستحصل عليه هذه المسكينة جراء حكمة مزعومة لكاهنة.

اقترب منتصف اللّيل ولملمت النّساء داخل المملكة أطفالهن تحت أجنحتهن. وبأسف شديد، كالشمس سطعت خارج القصر. كحشرة جميلة ملونة تحت الأرض تبحث عن النور زحفت هربا من أفواه مغلقة تكره أسئلتها وتريد سدّ حلقها بالدبابير. ما إن أخرجت رأسها من آخر النفق، حتى وجدته أمامها يمد لها يد المساعدة.

بوكوس ماذا تفعل هنا ؟! ألم تخبرك ماتيا أن تنتظر قدومنا بعد منتصف اللّيل عند الكثيب الأحمر ؟!

ـ قلتُ عوض أن تأتي إليّ في رحلة مضنية عبر أحراش الغابة التي تتحول في اللّيل إلى وكر للحطّابين الأشرار الذين يسكرون فوق ضروعها بعد قطع عنق أشجارها؟ لتعويض رياحها الميتة بصوت بارد أسود يهشم فم من لا يبكي بيأس، من يركض داخل أغصانها الكثيفة ومستنقعاتها كحصان هائج. أحذركما قبل أن ..!

قالت الكاهنة ماتيا:

ـ أصبحت أشك في نواياك! من ماذا ستحذرنا؟ وكيف عرفت طريق خروجنا من القصر قبالة الغابة الجريحة؟!

ـ الوقت ليس مناسبا الآن لخوض هذا الجدال. أيتها الكاهنة يجب أن تعودا فورا وبسرعة من حيث أتيتما وإلا لن تكون ليلتكما هادئة.

ـ بوكوس، منذ قدومك إلى المملكة، أصبح الكل يتحدث عن الموت! لمَ لا يكون الموت هادئا؟!

ـ نومينسا أختك ذهبت تبحث عن عنوان غرفتك إنها تخفي وراء ظهرها الشر! إن لم يجدوك على سريرك نائمة في هدوء ولم تعثر عليك داخل القصر، ستحدث ضجة وتنادي السكان ليلاحظوا غيابك. وفي الإبان قد يموت أحدهم في الخارج، فيتهمونك أنّك كنت في الخارج ترسلين الذعر وتفترسين الرجال، يا بغلة القبور!!

ما إن أتم بوكوس تحذيره حتى جذبت الكاهنة ماتيا نومينسا.
ـ لنعد هيا، وهي تنظر إليه بحدة.
قفزتا بارتياع زاحفتين داخل النفق الذي جاءتا منه وهما تحملان بحرا من الأسئلة؟
وهناك داخل فضاء التيديت ووفقا لشرائع مجلسهم، بعد أن مزقت تنكامرت نسمضلن كبيرهم أمسناو، صعد أمدياز وأصبح كبير جماعة الاثني عشر بعد أن أدى القسم. ويسمى هذا القسم عندهم باسم قسم إخوان الدم:
"أنا مرشدكم الأعلى وأنتم القطيع، سلمتم التنظيم إلى الأكبر سِنّا، أينما أكون تكونون، لا شيء فيكم يزيد وينقص، تولدون كما أنتم، هكذا نحن لا نتغير، نعيش على الخرافة، في النبع المتدفق من الكتاب المقدس ندخل دون استئذان، نأخذ منه شرعيتنا على الكائنات التي تحلم بالموت بحثا عن الخلود.."
مثلما علّمها الفارس بوكوس إنّها تنسج الآن خيوطها كالعنكبوت. كثعلب صغير بدأت لاميا خطتها الماكرة لإشباع شهوتها قبل طلوع الضوء. تصرخ في وجه حراس القصر:
ـ أين تخفونها؟! هل أنتم خائفون منها؟! لن أخرج من هنا، قبل أن تأخذوني إليها؟!
سمع الملك هوار بن أوريغ بن برنس صراخها عند بوابة القصر فجاء يركض مسرعا كطفل صغير لا يفهم ماذا يحصل؟ وقبل أن يمنعها من الصراخ صرخت في وجهه!
ـ قدمت لك الكثير ولم تقدم لي سوى الهواء والحديث الفارغ!

بدا هوار خائفا كأنّ لاميا هددته بشيء أرعبه. أمر الحراس بالانصراف. ثم أجابها بهشاشة:

ـ هل جننت، كفي عن هذا الغناء وسأنفذ لك ما تطلبين.

ـ لن تنفذ... أنتَ مهتم فقط بها ولا تهتم بالدم الذي يسيل من سلالتنا، ها قد أصبحتْ ملك يمينك، خذ منها ما تريد، ألم تختل بها حتى الآن؟! أم فقط توصد عليها الباب تُغطيها، لتصطاد رجالنا وتدفنهم تحت التراب. هل تقدمُهم لها وليمة أيها الملك؟!

ـ ماذا يا لاميا لا ترددي هذه الكذبة أمامي. لا أملكها ولا تملكني! وأنا وأنت من وضع الغبار على الحقيقة. لا تحاولي أن تخفيها أمامي. نومينسا ليست ملعونة. سأذكرك بشيء! نسيتِ ما حصل بعد تلك الظهيرة فوق التلال؟ أأنا من ملأ أفئدة هؤلاء الفرسان بالسم؟ وغيّر دربهم فماتوا فوق تلك الحجارة. أنت هي الأفعى التي قادتني إلى عشهم..

ـ أكمِلْ الجملة أيها الملك. بعد أن كانوا يتآمرون عليك ويعدون أنفسهم في هدوء لقتلك. الآن... الآن أصبحت مجرمة في نظرك؟! من أمرني بدس سمّ ثلاثين عقرب أسود في طعامهم وشرابهم؟! من أمرني بجمعهم على مائدة واحدة في ذلك المكان القصي بعيدا عن الأعين، بعد أن أوهمتهم بأنّي سأرشدهم إلى الممر السري الذي سيأخذهم إلى غرفتك لاغتيالك، وقتلك دون أن تتمكن حتى من إصدار صوت؟!

ألست أنت أيها الملك، من خاف منهم لأنّهم اقتربوا من هاويتك التي تخفي داخل أعماقها ما لا تريد أن يراه الآخرون؟!

مازلت خائفا أن يرديك سرّك القديم و طرفك الخفي قتيلا وتخسر عرشك، لأنك مددت جسرا للتواصل مع الرومان، مقابل أن ينجو سور قصرك!!!! سأذكرك أيضا مثلما ذكرتني، بأنك كنت شاهد زور على خرير إرهاب الرومان؟!

تعالوا، توسّعوا، استوطنوا، المهم أن تبتعدوا عن مساحة جلد الثور التي أخفي داخلها رأسي بذل. سمحت لهم بأن يعروا باقي جسد نوميديا! وأنير ابنك.. آه؟!!

ـ اصمتي لا تكملي... وساوسك هذه ستسبب حربا! ماذا تريدين!؟

ـ أن أكلم أختي نومينسا، وتنكامرت نسمضلن ليست أسطورة مثلما تدعي. ذلك الشيء الفظيع الذي يقطع رؤوس القطط والأطفال وأعضاء الرجال. يكره الإنسان، لا يعيش بيننا. يعيش بعيدا عن رحمة القمر. نفاه ربنا من أرضه، لكن ظله فقط مازال ينازع المكان، من يضمه، يفقد خصوبته. ماهو هذا الشيء الذي ينقص لاميا وتمتلكه أختها، وتريد أن تستعيده منها؟ كيف جعلها تفعل ما تفعله أقدام المغول؟! دون عاطفة ولا قلب تدخل حياة نومينسا، تعكرها لتدفعها إلى الانتحار ؟! تلصق خرافة البغلة في جسد المسكينة بعد أن تستغل عزلتها وحبها لزوجها الممتّد بعمق داخل التراب الأمازيغي، لتقدّمها إلى اللاّروحانيين، يذبحونها ويأكلون لحمها ويشربون من دمها فيضربوا قلبها بحجر حتى يسقط اسم من تحبه وتُكتب نهايتها على الأرض جثة على الرمال الصفراء تعلو جسدها وتردمها.

أن يرفع الإنسان حربته في وجه أخيه عوض أن يقاسمه قوته، هل يعني هذا أن لاميا لا تمتلك حياء يمنعها من طلب الموت لأختها؟! أو أنّ جسد الإنسان العاجز داخلها هو السبب؟! ذلك الجسد الذي لم يستطع الانتقام من الطبيعة. فلا عيش من دون أن يموت في حلقة لا تتوقف عن قتله، دهرا وراء دهر، عبر رحلة عبثية طويلة اسمها الحياة ؟! فقرّر... إبادة نفسه بنفسه وصبّ جام غضبه على آدميته التي قاومت رغبة إبليس عندما قال أرجعوا هذا الشيء إلى التراب. لكنه سخر منه وأجاب على تلك الأسئلة التي لم يسمح الرب إلا لذي شهوة بالإجابة عنها! فنزل إلى الأرض في غير وضوح! حكمة أو عقابا ؟! تزوّجَ وأنجب سلالة، منها من يؤمنون بالعقل ومنها من لا روح فيهم! منهم من يحسّون بالظمأ؟ ولا يستطيعون الوصول إلى الماء!

ولكن عندما يبحر منهم من هو مغطى بالتفكير، يقتلونه ثم يستولون على النّبع قائلين: "من قال لك أن تبحث ؟!"

عاجزين عن التفكير! ندافع عن عدم وجودنا بقتل الذين يؤمنون بالعقل! من يحملون حقائبهم بسرعة ساخرين من نقلنا البطيء الذي يفيض بالرماد! من يرغموننا بتهور على نفض الغبار الرخو الذي ننام عليه، ونحن مصابون بمحنة أنّ من يحاول تغيير الأساطير القديمة جاهل وكافر! هؤلاء هم من قالوا:

ماذا إن عدنا إلى بيوتنا وجدنا شكل تلك الحجارة الملساء التي كنا نذبح فوقها الأبرياء، تُحِسُّ! فانبثق منها نبع لا يجف! وجاءت

الطيور، وجاء النّبات، وكل من لديه حدس أنّ الحق لا يموت!!!!
حينها تطمس آثارنا ولن نستطيع العودة إلى الضياع الذي كنّا فيه. لا خيار لدينا سنكتفي فقط بالصفير من بعيد كالأبالسة ونرميهم بالحجارة لأننا نكره الطيران. علّهم يسقطون...؟!
أدار الملك هوار بن أوريغ بن برنس ظهره وقال لها:
ـ اتبعيني سنصعد إلى غرفة أختك ..
ابتسمت لاميا فلمع وجهها كما يلمع السيف الذي يعكس وجه ضحيته. وسارت وراءه على عجل. على مهل وضع المفتاح في القفل. ثم أداره ودفع الباب ببطء.. وبلطف قبل أن يدخل استأذن:
-نومينسا.. هل أدخل؟ لا تخافي ولا تسأليني لم جئتك بأختك؟ هي من ...
وأختها لاميا تلكزه في ظهره من الخلف. أُدخل، أُدخل لن تجيبك ليست نائمة هنا. تحب أن تصطاد في آخر اللّيل.
صدقتني الآن؟!
استجاب الملك هوار لكلام لاميا المستفز فدخل الغرفة عنوة، لكنه لم يجد سريرها في مكانه تحت الشباك قبالة مدخل الباب.. فقال بكآبة وهو لا يصدق:
ـ هذا لا يعقل!
ولاميا في عتبة الباب تقول له:
ـ نظراتها ستصدقني الآن!

أدار وجهه إلى الناحية الأخرى كالمجنون، وكأنّ قمرا طلع له من العتمة في أقصى يسار الغرفة. رأى السرير في غير مكانه كأن أحدا رماه هناك. برشاقة مشى بل جنّح وقلبه يدعو ألاّ يكون خاليا. هناك شخص ملتحف نائما! اقترب منه.. في هدوء وقلبه يدق. رفع اللحاف كمن يكشف غطاء عروسه ليلة الزّفاف، فرأى لوحة مسرفة في الجمال. وجهها دون زينة، أجمل من وجه من ظلت أمام المرآة عشرين سنة وهي تضع المساحيق.

من هول هذا المشهد ضاعت نبرة لاميا:

ـ نومينسا في الغرفة. وفي سريرها، وتحت لحافها، نائمة والسّاعة الأن تجاوزت منتصف اللّيل؟! هل كلام بوكوس سيطير مع طلوع الصباح وذهاب هذا اللّيل؟!

أعطته لاميا مفتاح الغرفة السرية للملك هوار بن أوريغ بن برنس مقابل رأس أختها. تلك الغرفة، يعتني بها هوار جيدا كما يعتني العاشق بحبيبته لا يسمح لأحد بلمسها أو الاقتراب منها. من يتجرأ على دخولها يقتله.

وأيضا بوكوس لم يقتل هذه الليلة تيديت من جماعة الاثني عشر مثلما وعدها.

بخطى ثابتة وثقيلة هم الملك بمغادرة الغرفة وهو يسخر من تقاسيم وجه لاميا الذي أصبح خاليا من الحياة تماما كأن سبع سنين عجاف مرت عليه. قال لها وهو يدفعها خارج الغرفة:

ـ نحن لسنا ضيوفا مرحبا بهم هنا. لا تغضبي منّي لكنّك تزعمين أشياء لا وجود لها، والغريب أنّك تصدقين مزاعمك! هل

أصبحت مصابة بمرض الوهم. نومينسا في غرفتها نائمة ولن تقتل أحدًا. أرجوك انسي أمرها واطمئني مثلما وعدتُك، لن ترى النّور. إنّها داخل ثقب إبرة لا تستطيع الخروج. هيا لنذهب إلى غرفتي لقد اشتقت إليك سأقطعك نصفين.

قالها هوار مازحا. لكن لاميا نفضت يده عنها وقالت كلاما ثم ركضت باكية:

ـ أنت تستغل حبي لك وتستمتع بي، لست بدايتك ولا نهايتك، أين أوقعني قلبك؟ لا أعرف. لكنني أنتظرك هناك. أتعلم؟ بعد أن جربت كل الشّوارع لتوصلني إليك، يبس كلامي وأنا أبحث عنك. وضعت نفسي في خدمتك. ولم أصن شرفي. كنتُ جسدين. جسد سيدة أَحبَّك. فتحتَ شباك قلبك ورميتَه في التراب ليمرغوه وتلعب به الرياح. انفجر باكيا. وكان يصرخ "خذني إليك". وجسدا تاجرت به.

فوق سريرك سلمتني إلى أمسناو، وكالغبية قلت من شدة وفائي أنا لست مجرد عاهرة عادية. لن يخسر الحب شيئا هنا. سأصطاد بجسدي هؤلاء الذين يريدون أن يبعدوك عن الحكم وأورطهم! لكنك لا تحبني. لم توقظ هذه المهجورة من نومها بعنف لأنّك أحببتها وفي المقابل أوقعتني من حصانك! لا تفرح كثيرا.. أيها الملك، لن تصحو من أجلك، لأنّها لا تحلم بك! حاولتَ قتل زوجها، لكنك لم تقتل مكانه. ثقبتَ قلبها لكي تمر منه إليها، لكنه أصبح نايا حزينا ينتحب ليلا نهارا ويغني "من رأى منكم حبيبي". لم تحلُم بك أبدا يا هوار. وكان حلمي أن تبقى

ملكا!! لكنك وضعت حبل المشنقة حول عنقي. ما شأني الآن بمن سيفرح في النّهاية؟ لم أعد أحبكَ... أتركك الأن لتمدّ لها يدك بلين عاطفي وتتسوّل قبلة من امرأة لا تهواك. سيبقى فمك بعطش أيها الملك... وداعا.

الفصل الثامن

نامت جميع الأرواح في تماجورت، وأصبح الأمازيغ يخشون هذا اللّيل، الذي أصبحت صورته في أذهانهم صورة ذلك القاتل الغامض الذي لا ينام، طار الموت داخله بكل قسوة بحياة أناس أحبّهم وأحبّوه. وعلى من سيبكون هذه المرة، من سيدفنون بسرعة وفي هلع، وكيف سيراوغهم ليتساءلوا كيف غافلنا، ولم تنبح الكلاب في وجهه وهو قادم من بعيد وتركوا له الساحة خالية ليترك لنا فوقها كابوسا، وعملا مميتا، موتا كاملاً للأمازيغ؟

حتى الأمهات أصبحن ينادين أولادهن. لا تطيلوا السّهر خارج البيوت، ضعوا تحت ثيابكم ما يحميكم واشهروه في وجه اللعينة إن حاولت اصطيادكم، ناموا باكرا واصحوا باكرا.

كبير جماعة الاثني عشر أمدياز ينظر إلى تيديت بمزيج من الشّفقة والسّعادة، ينزل من أعلى الجبل كأنّه يصعد، يحمل بين يديه جثة وينظر إلى الغيوم اليابسة في السماء ويخاطبها ببؤس:

ـ لم اذرف دمعة هذه المرة، لأن هذا الجرح الجديد يخفي ندبة الجرح القديم.

ووراءه باقي الجماعة عن يمينه وشماله كأنهم يحاصرونه لأنّه تورّط بهذه الجريمة. وبصوت واحد يهتفون:

ـ ضاع منا واحد آخر، على من سيأتي الدور غدا؟

يا سيد السفوح يا ربنا القمر، سيوف الرومان التي لمْ تكسر ظهورنا كما كسرت هذه اللعينة أعضاءنا الآن تحاصرنا لتجتث سلالة جماعتنا من الأرض.

كفاكم هراء! ليس في وسع من مات ألا يموت هذه المرة!

ليست هي! قتيلنا لم يقتله هذا الوحش! هذه المرة لا يوجد دماء على الجثّة... في العادة بغلة القبور تترك أثرها وهذا القتل مختلفٌ!

لو أنّها تنكامرت نسمضلن لمزقت جسده كالعادة وأكلت أعضاءه الذكورية، فهي تكره الخصب والخصوبة لأنها تورث الإنسان الخلود. اقتربوا أنظروا إلى عنقه ألا تعرفون ما معنى هذه الجروح ؟! من قتله آدمي! خنقهُ! وعلى ما يبدو التيديت قاوم قبل موته. ستجدون أجوبة لكل أسئلتكم هذه ما إن نصل، أسرعوا بالمشي وكفاكم نحيبا لستم نساء. سنأخذ بثأرنا اليوم، عرفت القاتل، جنى على نفسه، بعد ترك حجة القبض عليه بغباء. وأعدكم قبل أن نقيم الجنازة، وقبل أن يشد قتيلنا رحاله إلى العالم الآخر، بأن نستعيد حق جماعتنا هذه المرة. التيديت في النهاية يَغلِبُون ولا يُغلَبون ؟!

نحن لا تتزوج وننجب، لكننا جسر لانتصار الروح على من لا عقل له ولا إيمان داخله، ولا روح فيه.

أحد التيديت يضرب الطبل وسط الساحة الحمراء في تماجورت، يضربه بِغُلّ وقسوة، بقوة لم تستطع حتى قصور الأمازيغ تحملها، فلفظت سكانها خارجها من عنف دوي القرع.

كأنهم خسروا الحرب فطردوا منها للخارج. على عجل هبوا من كل حدب وصوب، ليروا ما يؤلمهم. فرأوا أحد جماعة الاثني عشر مرميا تحت قدم أمدياز، كالفريسة، وأمدياز صلبا واقفا فوق رأسه كالنّسر الذي يحمي وجبته وسرعان ما تكلم:

ـ لن أطيل عليكم. الميت أمامكم. ليس ضحية بغلة القبور! وللحقيقة وجهان! أين الكاهنة ماتيا فلتقترب...

وقبل أن ينهي أمدياز نداءه، تقدمت الكاهنة ماتيا من جثة التيديت بخطى ثابتة تفحصها. ووراءها مباشرة قائد الجيش الجديد، يمشي كفارس جبان رفع راية الهزيمة لأنه لم يقاتل، يلتفت خلفه وينظر إلى الملك هوار بن أوريغ بن برنس كأنّه يودعه ثم يدفن رأسه في الأرض خائفا من نظرات سكان المملكة التي تتحدث وحدها نيابة عنهم وتقول تعبنا من تشييع الجثامين للمقابر.

ماذا يُضمر لنا العدمُ؟ من يروّض هذا الموت الشّرس ويبعده عنّا؟ طالت إقامته الثقيلة بيننا، ألا يخجل من نفسه؟ بدأت الكاهنة ماتيا تتحسس الجثة بأصابعها كأنّها تتفحصها... تلمس صدره وفمه وعنقه بأصابعها المرتجفة، وأظافرها الطويلة. تغوص في لحمه، تمزقه كامرأة تخدش ظهر حبيبها لأنّه جعلها تهذي من شدة الحب أو لأنه انقطع عن ممارسة الحب معها لفترة طويلة.

لكن بعد دقائق تشبثت الكاهنة بعنقه واقفلت يدها عليه. بعد لحظات من الدهشة التفتت إلى كبير جماعة الاثني عشر، أمدياز وإلى الجمع المنتظر:

ـ لم يعضه حيوان أو وحش له أنياب. هذه المرة لا توجد آثار سحل البغلة أو تمزيقها! من قام بهذه المأساة، له عينان ويدان وقدمان، خنق التيديت بحبل طلوع من ليف أشجار النّخيل. لكنه لم يلملم الخيوط التي تمزقت من قوة الشد والاحتكاك. الضحية قاوم بشدة لكن بأسف شديد، لم يستطع النجاة من هذا الاغتيال.

قاطعها كبير جماعة الاثني عشر قائلاً:

ـ وهذا القاتل الفاشل ترك أثرا آخر لم تنتبهي إليه يا ماتيا. انظري ماذا يوجد بين قبضتي الميت، وعلى ماذا قبضت يد التيديت اليمنى وهي تقاوم القاتل؟ لا تسألوا هذه المرة لماذا قتلَ القتلةُ؟! بل ماذا تركوا وراءهم ليدينهم ويورطهم؟

كان هذا السؤال بمثابة قذيفة قاتلة أطلقها أمدياز تجاه أحد ما، والظاهر أنه يعرفه، لكن على ما يبدو أنّه يثق بالتيديت الميت ليشهد على قاتله. بعد أن سرق منه شيئا قبل أن يقتله. فظن القاتل عندما عاد لوكره أنّها سقطت منه عندما كان يركض بعيدا عن مسرح الجريمة وهو خائف. وقد يكون الآن من بين الحاضرين يدّعي الطهر والنسك قائلا:

ـ أصابع يدي كأصابع يدَيْ الأطفال طاهرة ولا تؤذي.

لكن التيديت خبّأ بين يديه تميمة التّاج الأزرق، وما إن كشفت عليها الكاهنة ماتيا، حتى وجهت نظرها مباشرة إلى الملك هوار بن أوريغ بن برنس كأنها ترثيه!

ـ قولي اسمه. قال لها أمدياز! ولم تجرؤ على ذكر اسمه! قل اسمه يا قائد الجيش، تصبب العرق من جبين القائد ولم يجرؤ هو أيضا عن قول اسمه!

نعم تكرهون ذكر اسمه مثلي وكاللّص فجأة نطر أمدياز القلادة عن يد الكاهنة وأخذ يلوح بها أمام الجموع صارخًا:

ـ لمن هذه التميمة لمن هذه التميمة؟!

والكاهنة تقفز من مكانها كأنّه يخلع عظامها، ويعذبها بفعلته هذه! هل سيحشرها أمدياز مع صاحب الجريمة الذي يحاول كشفه الأن أمام الجميع!

رأى كبير جماعة الاثني عشر على وجوه سكان المملكة صور أغصان ذابلة، كأنّه حين تكلم أمر بقتلهم جميعا أو أنه حين سئل عن مصدر هذه التميمة أطلق لعنة من فمه جعلت الأرض تضيق بهم وستحشرهم. دون كلمات داهم قائد الجيش الجديد كبير جماعة الاثني عشر. استولى على القلادة:

ـ بعد اذنك ناولني إياها، أو اسمح لي دعني أراها عن قرب.

من هول الصدمة أراد قائد الجيش أن يُكذب نظرته الأولى فمشى مع التميمة وابتعد بها قليلا فبدا من بعيد، كالوحيد أو العاشق الذي اكتشف خيانة حبيبته وذهب إلى البحر ليلقي بآخر ذكرى منها مازال يحتفظ بها عنده.

فعلا قد نضطر أحيانا أن نكون قساة مع من نحب، وأن نقول لهم ما لا نحب أن نعرف منهم.

بعد أن تشجع قائد الجيش.. عاد من هروبه، سار مباشرة في اتجاه هوار بن أوريغ بن برنس وقلبه من الداخل يتمزق.

ـ سيدي...

كان يحب هوار، تخيل أنّه يحمل بين يديه سبب هزيمة ملكه، رصاصة عدوه، عوض أن يحمل له بشرى سارة هدية أخ لأخيه.

لا يتجرأ حتى أن يقولها له:

ـ أنت القاتل؟

تميمة القلادة الزرقاء، أو حجر الملوك السحري كما يطلق عليها الأمازيغ، يظنون أن الكاهنة ماتيا جلبتها من عوالم بعيدة، هبة الغيب الذي لا يعرفونه. لأنّها ترى ما لا تراه الأبصار العادية، أصبحت صديقة المرئي الذي يكره اللامرئي. فوهبها تميمة تبعد التباس النّور مع العتمة. ومنحتها لملك النوميديين لحمايته عندما يخرج وحده في مغامرة بلا بوصلة أو مرشد يدله، كخروجه إلى الغاب في الليل المخيف دون أن يعرف ما ينتظره هناك، وقد ينتظره عصفور فوق الشجرة، أو بغلة تترصده أسفل وتقول له أنظر إلي، كم أنا جميلة. اتبعني. ثم تصعد بروحه إلى أعلى. التميمة لا يمكن تفسير كلماتها رغم أنه كُتب فيها بخط التيفيناغ الأمازيغي:

"وراء الدّنيا سرٌّ لا يُرادُ لأحد أن يحدّق إليه! كل من يرتدي هذه التميمة عليه أن يغمض عينيه، ويسمع فقط سرد تفاصيل

الحياة والموت، ولماذا تؤجل النّهايةُ إلى الآن. إن لم تفعل هذ أتحول من قلادة إلى خنجر يطعنك في رقبتك."
شكل هذه التميمة أو القلادة يحمل وجه شجرة مجهولة تحمل غصنا واحدا طالما كانت تقول عليه الكاهنة إنّه الغصن الذي يحمل الجواب الواحد... ولهذا لا يرتديها غير ملك واحد...
ـ سيدي الملك، في الحقيقة لا أجد ما أقول، وجدوا هذه مع الجثة!
ـ ناولني التميمة ولا تقل شيئا، أنا لا أخفي أشيائي التي تميزني عن الجميع. إذا قررت أن أقتل فأرا، لن أختبئ في جحر بعد أن أقتله، لأصبح فأرا جبانا مثله. وعندما أقفز لأضرب لا أتراجع مخافة أن يراني أحد. أقضي على خصمي أمام الجميع.
في الأصل أنا محارب، والمحارب لا يترك أثرا لفريسته وراءه، حتى لا تتبعه الغربان، فتعبث معه، مثلما يريد أن يعبث معي كبير جماعة الاثني عشر.
ـ اسمعني يا أمدياز، صحيح أن في شبقك شوق الطيران، لكنك لن تستطيع أن تحلق كالنّسر، ستلقى حتفك فوق أسواري.
قال هوار كلماته وهو يرتدي تميمته أمام الجميع دون أن يخجل أو يخاف من أن يمسكه أحدهم ويقول له، أنت وراء مقتل التيديت. تقدم الملك في اتجاه كبير جماعة الاثني عشر وصاح في وجهه:
ـ أنا بين يدي شعبي الآن ، ولا تظن أني أنتظر شفقة تخرج من بين يديك، أنت مجرد عاجز، لم يقتنع بعمق وحدته. يرى أنّه

عاش وحيدا كفزاعة عصافير، ولا شيء يهز روحه في هذا المكان المقدس، ندمتَ على التبتل وبت تحلم باللهو، لأنّك محاصر بوجع حسي. حتى خلوك إلى نفسك لم ينقذك من هذا الوحش. فالإنسان الذي بداخلك لم يمت. لأنّك لم تعوده الرّحيل والطفُوّ فوق الرغبات! بأن تصبح كل الأمكنة مكانا واحدا، لا كل ما مالت بنا الرياح نميل معها! في كل يوم أنت في حال، كالظل تكره سعادتك غيرك وتريد أن تغطيها يا أمدياز.

كنت تكره أمسناو لأنّك لم تقبل أن تكون تيديتا عاديا، يغني ويحب الجميع نشيده الغريب، لأنه يخرج من أعماق وحدته. دائما تظن أنك تدفع فاتورة ذوبانك وأنت تبحث عن الوحدة! تقولُ:

"آه من هذا المكان.. أنا وهذا المكان لا نلتقي. الأمازيغ يهزأون بمشاعري حين وضعوني هنا" قلها لهم ولا تخجل. "موتوا مثلما نموت يا سكان تماجورت. يا من لا تعرفون التضحية أو تحبونها."

أدرك ماهيتك أمدياز، فعندما تسمع صوت الملك، تصيبك ريح الشّهوات المزمنة، لتقول لِمَ لست أنا مكانه؟ وتشرد بك نجمتك خارج مدارك، لتدخل إلى مداري وتحترق.

هذا ما سيحصل لك، إذا اقتربْتَ شبرا واحدا من عرشي وحاولت النوم عليه.

ـ وماذا سيحصل لك أنت يا هوار ؟! الجريمة الآن أصبحت جريمتين! بوكوس وجد الباب مفتوحا دخل وتكلم من دون استئذان. يحمل لفافة بين يديه ويقرأ كأنّه يقرأ وصية موت:

"من پبليوس مسكينوس نيابة عن مجلس شيوخ روما إلى حليفنا المطيع في تماجورت، من كسر السيوف قبل أن تصل إلينا. نشكرك على مساعدتنا في تحطيم ما تبقى من ثورات في نوميديا، ونعدك أن ضجيج سيوفنا وعواصفنا سيظل بعيدا عن تماجورت، القرية القديمة التي تحكمها، ما دمت تعرف الصواب لا تضغط وتهبط كما يفعل الثوار. ولا تمشي خطوات أكبر منك كالذين يودّون أن ينفضوا عن أيديهم السلاسل قبل أن ينسوا هزائمهم حتى. مادامت يداك تدفع البلاء عنّا، وتكسر يد من يحاول أن يفلت من قبضتنا، وتعطينا أسماء الثّوار وهويتهم قبل أن يركضوا بقدمين حافتين في الدروب الوعرة أحرارا بعيدا عن تاج قيصرنا وتخمد معنا الفتنة وتلبسها "قميصَ اضطهادٍ فاتكٍ شائكٍ يردُّ جِماحَ" الذين يعتبرون أنفسهم مخلصين وماهم بمخلِصين أو مخلّصِين في نظر كنيستنا المباركة. فإنّك هكذا تدفع بأصابعك العشرة المتاعب عنك وعن شعبك.

نُهديك باسم روما وقيصرها ومجلسها ما تريد وما تحب ثلاثمئة قطعة ذهبية وهذا الصندوق المليء بسبائك الذهب."

ـ مالك تعوي؟ قال قائد الجيش لبوكوس، ناولني الرسالة.

ناوله إياها مازحا:

ـ لن أحذر غضبك لأني أعلم أنك تجيد قراءة لاتينية الروم أيها القائد. اعلم بأنّي لم أكن أود هذا، ويا ليتني سلمتك رسالة مكتوبة بكلمات جميلة من عاشقة إليك، لا هذه الكلمات، التي تفوح بالرّوائح الكريهة التّي لا تستحق إلا اللجم.

وفي نفس الوقت لم يسْعَ بوكوس إلى احتواء هذه المشكلة الكبيرة بل زاد في توسيعها. أخرج لفيفة أخرى من تقشابيت التي يرتديها. لم يفتحها. وببرود وهو يقضم أظافره بأسنانه. تقدم مشى في اتجاه الطبل الكبير حيث أمدياز وجماعته واقفون في وضع عسكري، سلمهم إياها دون أن يخاف أن يتحدث محتواها عن ماضيه المريض أو حاضره الغير نقي قائلا:

ـ بخط التيفيناغ الأمازيغي عليها ختمه واسمه ولن أستطيع أن أقول أي شيء آخر، أو أقرأها مرة أخرى وإلا قتلت نفسي أو ارتميت ميتا لا أحتمل العار.

كانت الكلمات تنتفض في قاع صمت هوار بن أوريغ بن برنس. أصبح وجهه مليئا بالخراب كقرية اجتاحها الطوفان. لم يعد أحد من الجماهير يدافع عنه. أصبحت أصواتهم سوداء ومزعجة ومخيفة. تحمل السواطير وتنادي بقسوة مطالبة بدق المسامير في نعش الملك، وبسقوطه من كرسي الحكم وسجنه. الوحيد الذي حاول أن يمنع الثائرة من تقطيع هوار المسكين، قائدُ الجيش. لكن دون جدوى كان كأنّه يخاطب الجدران.

الملك يتألم صامتا وحيدا كوحش جريح في الفلاة، اتفق عليه الجميع اليوم. حتى من أحَبَّته خانته. كانت تنظر إليه من قريب ودموعها تودعه قائلة:

كنت أظن يا حبيبي أننا متفقان. لا أنت أردت، ولا أنا استطعت! عندما سلمت مفتاح غرفتك السرية لبوكوس، لم أسلمه قلبي الذي أحبك؟ بل لأنك خرجت من حياتي، وكنت تكذب علي دائما بقولك "سآتي غدا"، ولأنك لم تأت،

تقول فقط بضع كلمات وأنا أنتظر الصباح الجديد بلهفة.

و جاء الصباح... و أغمضتَ عينيك أمامه. ماذا تركت لي غير تلك الكلمة. ذكرى عزيزة زرعتها في قلبي وذهبت وأنت تربّت على كتفي كأنك تربت على الخنجر الذي غرزته في قلبي.

قلت لبوكوس:

ـ هذا المفتاح، افتح غرفة حبيبي وقل له عد إليّ.

ـ لكنه آذاك؟

ـ لا تخف لن تموت وحدك سيجمعون عظامنا معا.

اجتمع مجلس الاثني عشر بسرعة كأنهم ينتظرون هذه الفرصة. حكموا بالموت على الملك هوار بن أوريغ بن برنس عن طريق سلخ جلده عن لحمه، وبحرق عظامه في النّار وهو حي. حرّموا على الصغار والكبار ذكر اسمه، حتى لا يبقى له أثر حتى في بقايا التاريخ. وسينفذ الحكم بحلول الأشهر القمرية.

وبوحشية قاموا بكسر فكّ أسنانه وتحطيم فمه، حتى لا يستطيع الأكل والشرب، حتى قدوم موعد حرقه. ربطوه في

وسط الساحة الحمراء، كالبهيمة داخل قفص مفتوح من فوق لتنزل عليه الكآبة وليرموا على ظله الحجارة. ويمنع منعا باتا على أصدقائه الحديث معه، ليتحدث فقط مع آلامه. حرموه من الغطاء حتى لا يستطيع أن يعض وسادة بأسنانه ويبكي. بلا فم.. بلا سماء.. بلا حرية...

كتب بوكوس كل ما أراد. رسم، وغنّى. وبفضل راحة يديه الملطختين بالدّماء، تقدّم أميدياز بهدوء:

ـ من تيديت متعب غريب في جبل بعيد. من أحمق يريد أن يجامع تفاحة وسبعة برتقالات، إلى كبير جماعة الاثني عشر، ثم إلى ملك لن تسعه حتى هذه الأرض الكبيرة.

فعلا هناك حقيقة واحدة وهي أن الملوك لا يعرفون كيف يحكمون. وإلا ما سمعنا كل هذا:

ـ اشربه ..سواء بالعنب أو بالتمر ستصل متأخرًا إلى منزلك. لا أعرف سرّك الدّفين لكنّني سأعرفه بعد أن أسقيك ويمر في لمح البصر ويذوب داخل بدنك لتنتشي وتقول لي "آهٍ في القلب شيء يهز القلب، شكرا لأنّك جلبتني إلى هذا المكان.. نشرب هنا لا لننال المغفرة من الرّب كما يفعل التيديت المنافقون بل نذهب بعيدا بحثا عن أنا أخرى. ما نحن اليوم عليه سببه هم."

لمَ تسير خطى الشّباب دائما خلفهم، أليس للشجرة جذع؟! لماذا يغيرون مكان الجذع في تماجورت؟! أين أنا الأن ؟! هل نحن فوق الشجرة، أو تحت الشجرة ؟! لماذا تغيبوننا من المشهد ؟! ألا تعلمون أن في ساعد الشّباب جبلا، ولماذا اختار شعبنا أن

يختبئ في الجبال كالنّعاج؟ وراء الصخرة ذئب، لا تسيئوا فهم الذئب، كيف تذهبون إلى زيارة ذئب وتقولون له مرحى؟ ماهي الوردة؟!..

ضحايانا ذبحناهم بأيدينا، أقطعوا كفي الآن، لو أن هذا الموت الذي يتبع الأمازيغ كظلهم من صنع بغلة القبور.!! اسقني، اسقني.. كأنّك حرمتني من اللّذة؟!اسقني و سأخبرك.. ؟ ولا تخبر أحدا. لا أعرف شيئا عن الموت! لكن للكاهن حق القتل، ويسمى هذا بالقتل الرّحيم أو الصراع من أجل السّلطة. كأن تقتل ملكا عظيما اسمه هوار وتشرب القهوة بالسّكر والدم، مع أحد من جماعة مجلس الاثني عشر، وتشكرهم نيابة عن الشّعب، لوضع ساق فوق ساق فقط.. ورفع أمرنا للرب بعد حرق أراضينا والجفاف..

اسقني خمرا .. اسقني قلت لك ولن أعتذر عن شهوتي ؟! حرمان المحبين من الحب أمر سيء جدا، كأن تحكموا عليهم بالقتل، وتقولون لهم لا تموتوا الآن. لا تجروا الأنثى إلى غير قلبها، حتى لا ترمي عليكم قلبها العطشان بعد أن تجف وتموت.! افهموا.. شكل الروح يشبه المرأة، وروح المرأة حسّاسة جدا وتتأذى بسهولة... لا تؤذوا نومينسا، دعوها تحفر قبر حبيبها خلسة كالنّملة؟ فكل ما في الأمر أنّها تطلب منه قبلة. وستحفر حتى تصل إلى قلبه غصبا عنكم. عوضا أن تخدشوا قلبي عصفورين لتحولوا موسيقاهما إلى أغنية كئيبة، احموا مكانكم! وآه من هذا المكان ؟!

اسقني، اسقني.. بسرعة. سيأتي يوم على هذا المكان ولن تعثروا على شيء يدل على هويتكم، ستصبحون غرباء فوق أرضكم! سيأتي يوم لا تُسألون فيه عن سبب موت لغتكم التي لم تسعوا إلى أن توثقوها. ما دمتم لا تدرون! ستصبح عاداتكم غريبة عنكم، ولن تستطيعوا العودة إلى دياركم يا أمازيغ أو إلى طبيعتكم! من سواكم يدافع عنكم؟! أتدافعون على نسيانكم؟! أرخوا لغتكم. من يدري، ماذا يخبئ لكم الغيب؟ قد يسألكم غريب أين الدّليل؟!

واحد، اثنان، ثلاثة، اسقني، اسقني خمرا الآن، ولا تحملق فيّ وتدعوني إلى المغادرة. انضم إليّ أو اصمت! لا تخف صاحب هذه الحانة، بوكوس خرج صعد إلى الجبل ليجلب نبتة التكروري، ويبخرها، إنها من أخطر المسكرات كان هوار يمنعها. من يشربها، مباشرة يغمى عليه، ويسقط أرضا.

ناجيبيان الأعمى شاب أمازيغي يحب السلام وشارك في جميع الحروب، أصيب بالعمى، ولا يعرف أحد إلى الآن لِمَ أصيب به أو كيف؟ يقول عن فقدانه لبصره:

"حينما أرهفت السّمع إلى ما يحدث داخل تماجورت، هبّت عواصف وحشية أصابتني بالعمى والصمم والبكم.

يدعو الأمازيغ دائما إلى التحكم في صيرورتهم، وعدم نقل تاريخهم شفهيا، محذرا إياهم:

ـ ألا تعرفون ماذا سيحل بكم من بعد؟ سيختلفون في حقيقة وجودكم حتى! إن كنتم هنا فعلا أم أن حكايتكم لا دليل على وجودها؟.

لكنهم لا ينصتون إليه ولم يقتبسوا كلامه كالفيلسوف ؟! يعتبرون حكايته فارغة جدا. مجرد عبثي يسكر ليلا نهارا، ينام في الطريق كطائر مهاجر ليس له منزل.

بعد سجن هوار بن أوريغ بن برنس المحكوم بالإعدام، أصبح التيديت أمدياز وفق العرف الأمازيغي ملكا وفي آن واحد دمية بيد بوكوس. بوكوس الذي استغل جيدا الفرصة وزين منزله بالجميلة الرومانية مانويلا، بعد أن وضع عشا صغيرا لهما وتزوجها.

لولا نهاية الملك لما تجرّأ على جلبها للقرية القديمة تماجورت بعد أن كان يخفيها في حفرة كالأفعى في كوخ أعلى الجبل. لم يعجب قدومها الأحرار لكن الجميع يخشون معارضة الفارس بوكوس، الذي استولى ظله منذ قدومه على جسد المملكة دون أن يظهر للعلن. الكل في قبضته يحركهم كيفما يشاء! ومنهم مجلس الاثني عشر الملك الذي وسّع قاعدة داعميه داخل الجيش. وجودها فعلا غريب خاصة أن مانويلا الرومانية تنفث ريشها ومراياها الحديدية في كل مكان كأنّها تعيش منذ الأمس هنا بكل ثقة ترى أن الغد القادم لها.

كل امرأة في تماجورت لا تشبهها أو لا تقلدها تسعى جاهدة لنزع ريشها عله ينبت لها زغب جديد، بدعوى تحرير المرأة من

العادات والتقاليد الأمازيغية المنحرفة! فكانت تستدعي النّساء إلى قصرها لتعلمهن الأشغال اليدوية لغزل الحرير وكيفية حياكة الزي المميز للمرأة الرومانية الستولا أو الأستولا (Stola) وهو رداء عريض وطويلة يزحف على كامل الجسد الأنثوي ملامحه أجنبية بحتة يثبّت حول الجسم بأحزمة لا تسمح لإيماءة واحدة من الشمس أن تفلت لتدخل فتشعل الضوء داخله.

كل ما اتضح الأمر يزداد الخوف من قبضة هذه المرأة كزوجها. المظاهر خدّاعة فعلا، إذا حدقت في جمالها تحس بالأمن والاطمئنان، لكن دون أن تعلم، يحدق بك خطرها من جميع الجهات.

شعرها الخرنوبي المذهب تترعرع داخله النزوات والمؤامرات خاصة عندما تطلب من الحمقاوات نزع البخنوق الأمازيغي وارتداء السّتولا ليرتفع قدرهن ويصبحن من الطبقات الرّاقية. أ لا تعلم أنّها لا تعدو أن تكون مجرد غيمة شاردة تحاول إغراق حضارة كاملة؟ نعم هي لا تعلم أنّ هذه الحضارة القديمة تحمل سيفا. وسترى صاحبه بعد قليل يطعنها في قلبها أيما طعنة. وهل توجد طعنة لا تبقي في فؤاد المرأة شيئا طبيعيا، غير وقوعها في ...؟!

قدم الأعمى من هناك يسعى ويغني:

" لأنّ القمر جميل أبعدته الآلهة عاليا، عاليا عن أيدي البشر".

إنّه كعادته لا يهدأ قبل أن يسكر ولا بعد أن يسكر. بعد غروب الشّمس لن تجده إلا حسّيا خرج من وكر المتعة والرذيلة الذي فتحه بوكوس. ياله من مسكين وقع على الأرض بعد أن خذلته عصاه التي يعتبرها عينيه التين يرى بهما.

خيم الظلام. ومانويلا كظبية شاردة، تبحث عن ابنها! لكنّها تبحث أيضا عن زوجها الذي اختفى منذ يومين لا صدى يجيب ولا أحد في طريقها يطمئنها. إلى أن ارتطمت برجل غريب نابح يردد:

ـ ليت لدي حبيبة تغزل لي قميصًا من الصوف أو صديقا يساعدني على النّهوض. أ لأنني أعمى، لا يرونني ؟! قم يا ظلي لا تحدق بي .. ساعد ناجيبيان على النّهوض.

أعجبها المسافر ليلا وحده وعرفت أن سبب سقوطه الرئيسي كلماته، سقط من سفوح كلامه فوق سطوح هذه السّاحة الحمراء. اقتربت منه كأنّها أطلت عليه من شرفة، امرأة مهملة مازالت تنتظر مرور حبيبها منذ زمن بعيد ووجدته أخيرا. وضعت يديها بحنوّ على كتفيه لتساعده على النّهوض كأنّها تقول له تعال لأضمّك فقال متجاوبا مع لمساتها الحنونة:

ـ لطالما اشتهيت جسدا في منامي كجسدك..

فقالت:

ـ أنا امرأة، لا اقل لا أكثر.

فقال:

ـ أنت امرأة وأكثر...

سألته:

ـ ما اسمك؟

ـ سمّني ما شئت، المهم لا تتركيني على هذه الأرض، وخذيني لأرضك، لا أريد أن أمرض!

ـ لكنني لست أرضا!

نهض وقال:

ـ لكني انتقلت إليك الأن.

أسقطها أرضا وأشبعها قبلا، ما أطيب رائحتك ماذا تضعين في عطرك، وبماذا تشبكين شعرك، أنا طائر غريب دعيني أكتب اسمك على ريشي ليعرفني الناس وينادوني به.

الغريب أن مانويلا في البدء استسلمت له، لكنها استفاقت بسرعة من تيهها، وتغير لونها إلى الرمادي طارت من تحته:

ـ لا سماء لك ولا أرض، اللّعنة عليك، لست شهوتك. عد إلى حجمك الطبيعي أيها الوضيع، مجرّد أعمى معتوه. كيف تجرؤ على الاقتراب منّي هكذا، لم يتجرّأ ويفعلها رجل قبلك.

لا أصدق أنّك قبلتني. أنا أُسوة النّساء الشريفات.

أجاب متلعثما:

ـ لا هوس لي بالنّساء. أول مرة أبحث عن الدفء.

ـ تدفئك أفعى يا قذر. ارحل من هنا، وإلا لن أمنع نفسي من قتلك أيها البائس، كان علي رفسك منذ البداية كبغلة قبور ورميك بعيدا عن طريقي لا مساعدتك على النّهوض.

وهي تهدده لمحت طيف زوجها الذي يظهر ويختفي كالشبح. فاجأ مجيئه عواطفها. كديك مذبوح ركضت بعصبية. وكامرأة مريضة بالصرع، عانقته مضطربة وأنّبته قائلة:

ـ ألا تشتاق لي أين كنت؟ لا تلبث أن تظهر حتى تختفي؟

سخر الأعمى ناجيبيان من لقائهما المصطنع فقهقه ضاحكا:

ـ القهوة لا تُشرب باردة، قد تشتاق السّماء الصافية إلى غيمة واحدة لتمرح معها لكنها تكره الغيوم بصفة عامة.

تفحصه بوكوس بازدراء:

ـ لا ينقصني إلا هذا المعتوه ناجبيان. ماذا تفعلين معه هنا، إيّاك أن تنصتي له، عرف عنه تضليله للنّاس. هيا يا هرّتي لنعد إلى القصر لدينا حفلة.

هذه المرة توجه إليه ناجيبيان بسخرية تنطوي على حقد دفين:

ـ قد أقول كلاما بلا وزن أو ايقاع لكنّني لا أكذب أو أبيع نفسي للشيطان يا فارس الظل أنت.

لم يهتم بوكوس لضجيج هذا الأعمى لأنّه في نظره فارغ. جذب حبيبته من يدها وانصرف دون أن يرد عليه. لكنّها ظلّت تمشي وتلتفت إليه كأنها تريد العودة!

أمام وجه الملك أمدياز، اثنان من التيديت ثائران يطفقان ويزفران يتظاهران وهو يضع يده على خدّه وينظر إليهما حائرًا وهما يصرخان ويرددان بإصرار:

نحن نريد الجنس...

نحن نريد الجنس...

وخارج القصر مجموعة كبيرة من الأمازيغ، يتظاهرون منذ الصباح وقد ضجروا من الانتظار، منهم من خاب ظنه في الملك وعاد إلى منزله جائعا ومنهم من بقي يصرخ محذرا مطالبا راجيا في آن واحد:

ـ أمتنا في خطر. فأبعد عنا خطر الجوع أيها الملك، كل شيء احترق! أكواخنا. مزارعنا. ولا نريد العودة إلى كهوف، ألن تقسم الرّغيف مع شعبك، لمَ تخفي محاصيل حقولك؟ لم يبق لنا حتى جذع شجرة واحدة نستند إليه.

كان التيديت ما يزالون يرددون:

نحن نريد الجنس...

نحن نريد الجنس...

الملك أمدياز يستغرب من هذين المكبوتين اللذين هدرا ماء وجهيما عند قدميه، وهو ينظر بازدراء من أعلى شرفة في القصر إلى المحرومين الذّين يطالبون بالخبز والماء وقليلا من الكرامة التي ضاعت منهم وهم يقبلون أيادي الحراس عسى أن تلين قلوبهم فيفتحون لهم طريقا للمرور إليه ليساعدهم في مجابهة هذه الكارثة التي حلت بجميع الأمازيغ الذين سئموا وعوده وتأجيل جوعهم كلِ يوم إلى يوم أخر.

لماذا لا تموتون وتريحونني منكم؟ مللت من جوعكم، ألا تيأسون؟ ألا تملّون من الوقوف هكذا في وجهي طوال النّهار كصنم خال من الرحمة والحياة؟

من المبكيات المضحكات، ما آل إليه وضع أغلب الفلاحين الأمازيغ، وتلك الخاتمة السيئة لأراضي البسطاء منهم. منازلهم حرقت، كم هم مساكين. لم يجدوا ملكا حنونا يخفف عنهم شبح المجاعة وهذا الذل الذي يركّع إنسانيتهم.

في المقابل ومع هذا الهم، هم أكبر. فقد انتشرت أوكار الرذيلة وقُتِلَ الصّحو في تماجورت! فأغلب الشباب الأمازيغي غيّبوا عن الوعي. هل لأنهّم كرهوا قضيتهم أم لموت أحلامهم؟

استغل بوكوس كل هذه المآسي، ليزج بشباب فقد الأمل في الحياة إلى الإدمان على المسكرات. كل يوم يفتح وكرا جديدا، كل من يدخل إليه لا يخرج صاحيا فينسى حتى درب العودة إلى منزله. تجارة بيع الخمور هذه درت على الفارس بوكوس أموالا طائلة. ودفعه جشعه الخطير الذي لا يطيق الانتظار طويلا لمدة ثلاثة أيام حتى يتخمر عسل النخلة "ويتحول إلى *لاڤمي ميت يذهب العقل، إلى التبول في أواني اللاّڤمي لأنّه يظن أن في بوله غاز يساعد على تسريع عملية التخمير. فيصبح المشروب ميتا بسرعة خاصة بعد أن يطَعّمه، بعد عفنه عفنا آخر. نبتة الكوخرة الذي يسري سمها داخل هذا الشراب القاتل الذي يعده، تكفي جرعة واحدة من النبيذ، أن تجعل صاحبها ينسى اسمه ويفعل بنفسه ما لا يفعله العدو به.

بعيدا عن معاجم الخمر حصل الآن شيء خطير داخل القصر! ماذا صنع سم هذا العقربان الأسود الفتاك بمانويلا الرومانية. هذا الكائن فعل فعلته الكريهة المميتة وهرب. خرج لها من البئر

وهي تبحث عن الماء لتسقي بيديها الحريريتين أزهار حديقة قصرها. طعنها بشوكته السّامة في إصبع قدميها. فصرخت المسكينة من شدة الألم صرخة مدوية وصمتت مرة واحدة.

من تأثير قوة السم، لجمت لسانها كأنّها رأت الموت أمامها.

حملها زوجها إلى سريرها مسرعا منفذا والعرق يتصبب منها. وجسدها كلّه يتصدع. لا يوجد شخص الآن يمكن أن ينقذ مانويلا من الموت إلا الأعمى ناجيبيان. هو الوحيد في تماجورت كلها الذي يمتص سموم المصابين باللدغات دون جبن. بسرعة البصر أحضروه حملوه كالملاك السكران إلى سريرها. وقالوا له أنقذها.

أمرهم بإحضار هذا العقربان الذي لدغها، وعندما رآه علم أنه القاتل المميت. لا يحلم إلا بالقتال. وعندما لمس نبضها ولم يسمع صوتها أحس حينها بالخسارة والغريب أن ناجيبيان الأعمى لم يكن يلمسها بحنوّ. كان يجرحها بخنجر صغير بطريقة متسارعة من إصبعها المجروح وهو يصعد ويهبط. ويضم جروحها إلى شفتيه، ويمتصها من أعماقها كالنحلة يبحث عن لبها الطري ولا يشبع من حلاوتها. لكنه كان يبصق دما ملوثا، لونه أسود، إنه يمتص السّم بتهور. ينقله من داخلها إليه، ويركض وراءه داخل جسدها ليجتث هذا الخبيث قبل أن يصل إلى قلب عشيقته ويحرمه من حبها وحنانها الأبدي الذي سيركض وراء صورته إن تمكن من إنقاذها.

مرت أكثر من ساعتين، وناجيبيان في التباس بينه وبين هذا الجسد النّاعم الذي يقبله كعروس خجلة في ليلة دخلتها. وحبيبها يأخذها برفق إليه إلى أن يصل إلى أعماقها لتترك أثر عذريتها فوق سريرها دما طاهرا.. لكن هذا الدم الذي تركته أسود، ملوثا خبيثا ومسموما حزينا وقاتلا.

وكأن هذا السم انتقل من كائن إلى آخر. انتقل منها اليه. عندما استيقظت تصرخ: "أغمي على الأعمى ناجيبيان". كأن ضعفا حلّ بالهواء الذي تنفسه فسبب قصورا في رئتيه. انقلبت حدقة عينيه وتحول لون وجهه الأبيض إلى ليلي أسود. لقد حصل له شيء مخيف، حوّل شكله إلى ما لا يشبهه.

وبسرعة قالت لهم الكاهنة ماتيا وهي تهذي كعادتها:

دعوني أنقذ وجهنا قبل أن نشبه ما لا يشبهنا. والده من تلك الجزيرة، لكن روايته هذه تدفئنا وستعيد إلينا الحياة.

أخرجه بوكوس والحاضرون كل يلملم أطراف كأس مكسور. والكاهنة وراءهم تنوح:

شعبنا المعذب في حاجة للخبز وإلى من يوقظنا. أيقظوه أيقظوه ولا تنتظروا رسلا. لم تمنع مانويلا نفسها من النظر إليه حاولت النهوض من فراشها واللحاق به وهي تصرخ أيضا "أنقذوه". لكنهم منعوها لأنها مازالت عليلة يجب أن ترتاح حتى لا تلقى نفس مصيره.

على ما يبدو أن هذا الأعمى وهو يمتص السّم نسي أن يعالجها ربما ظن نفسه أنّه في حلم وهو الآن يقبل حبيبته فاستسلم لحرارة دمها، ليختلط لعابه بالسم ويشرب دم هذه الجريحة.
الكاهنة ماتيا تفتح فمه وتقطر داخله قطرات من ماء أخضر كأنّها استقطرته من نسغ عشب أخضر. وكانت مع كل قطرة ماء تنزل بصعوبة داخل جوفه اليابس وتقطرها تناديه:
ـ إن ضاقت ستتسع ولن تحس بالموت. ألمك سببه نحن. من يغني لنا، ينتحر.
لم تكن مانويلا سعيدة بنجاتها من سم العقربان، أحسّت بالذنب. رأت نفسها مسرحا لهذه الجريمة وأنّها أفسدت حياة رجل فداها بحياته لتعيش. طوال الليل تبكي وتصرخ. ولم يستطع أحد تهدئتها حتى زوجها بوكوس الذي قال لها ساخرا ومخففا. ماذا حصل لعقلك؟ ماذا لو مات؟ ماذا قدم لحياته أصلا، هو يعتبر محظوظا لأنّه قدم حياته التي عاشها عشوائيا فداء لسليلة ملك مثلك لا تحزني يا عزيزتي.
فصرخت مانويلا في وجهه:
ـ أنا لا أقايض حياتي مقابل موت أحدهم. لو حصل هذا فعلا كما قلت، لن أسامح نفسي. ولا يمكن لشيء حينها أن يثبت لي أنّي حية. نعم أود أن أحمل له حياتي التي سرقتها من حياته. بسببي سيموت. أنا لا أريد الموت لعدو فما بالك بشخص أنقذ حياتي. يا بوكوس مابك؟ أنا لم أعد أعرفك هل أنت حقا حبيبي؟ ماذا ابتلعت؟ اقذف هذا الشيء المغلق الذي يغلق قلبك

ويمنعك عن تنفس الحب. بتّ أشم رائحة مخيفة تأتي من أعماقك، حتّى إنّي لم أعد أطاردك ضاحكة، بل بتّ أبحث عنك خائفة ولا أعرف أين تذهب، هل كنت تبيع قلبك لغيري حين تتركني؟

انصرف بوكوس دون أن يمسح شفاه مانويلا اليابسة أو يمسح دموعها، دون أن ينبس بكلمة واحدة. هل أغضبه كلامها، أو أنّه فعلا اعتبره مجرد ثرثرة نساء لا طائل من نقاشها؟ وقضت هي ليلتها في تجل إلى الله إلى الرّب الأعظم. أطفأت جميع المشاعل وتركت مشعلا واحد خافتا ووقفت بخشوع النّاسكين والرهبان، أمام أيقونة اليسوع عيسى والسيدة العذراء. وأخذت ترتل تسابيح:

"لأنّك يا سيدي المسيح قلت: "أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ"، أُنير شمعة تكريمًا لمن امتص السّم من عروقي ونجّاني. فاقذف عليه نورك واجعل قلبه يدق بقوة فهو من قال عنهم معلمنا بولس : "انْظُرُوا إِلَى نِهَايَةِ سِيرَتِهِمْ فَتَمَثَّلُوا بهم " إنني أتمثل بشجاعته.

أيها الروح القدس في الأيقونة، أَعطِ دعائي الحرارة وأوصله إلى الرب في السّماء. باسم الرّب وباسم السّماء، أضع بين يديك ابنك المريض راجية من جلالك أن تلمسه. بيدك الحانية لمسة الشفاء. واثقة بعظمة رحمتك وعمق حنانك.

فقد قلت "تعالوا إلي أيها المتعبون وثقيلو الأحمال وأنا أريحكم." تحنّن يا رب وأرح هذا المريض، وامنحه الشفاء التام. أشكرك من أجل نعمك وحبّك وأطلب أن تتحقق مشيئتك بما فيه خير له.. أنت في التعب راحة، في الحزن عزاء، وفي المرض شفاء.

اختلط الحابل بالنابل، كل الأحداث تسير بطريقة أخرى غير متوقعة، حتى الأمازيغ باتوا لا يعرفون لماذا، وهم في يد من؟ أو من الذي يعبث بهم هكذا؟

إياك أن تسرج خيلك مباشرة بعد انتصارك في المعركة، هذا ما لم يفهمه الأمازيغ... فبعد الحروب الكبرى مباشرة توجد حرب أخطر، اسمها الحرب الباردة. لا تصدر دخانا، أو تدّعي الدفاع عن نفسها أو كرهك، لكنّها تحاربك تأخذ فرسك الذي تركته لتحتفل بنصرك وتذبحه، حتى تجبرك على الامتثال لما تطلب منك وتبيعك فرسا لا يستجيب لمَا تطلبُ! كيف يمكن لك أن تقول أنّك انتصرت، ولم تصل إلى تلك الحياة التي بحث عنها هؤلاء الذين ماتوا وهم يدافعون عنك.

نعم انتصر الأمازيغ في المعركة الكبرى على الرومان، لكن أرضهم التي حرّروها أصبحت مأهولة بغيابهم، الحرية عبارة عن مجرد حجر ما، لم تسكن السّكينة نفوس من قاموا بها.

هذا الذي فيه الأمازيغ لا ينبئ أنهم أيقظوا جسدا كان تحت الأسر. فكلّ ما نراه مجرّد غرباء اختفوا من الحياة، ثم عادوا فجأة مختلفين تماما عن اعتقاد وآمال من ضحوا وحلموا بكتابة غد أفضل.

فكأنّ قبس الأمازيغ أحرق أراضيهم، ومرض النّبع وجفافه، بسببهم هم، لأنّهم لا يندفعون إلى حبيباتهم كما يندفع الماء داخل رئة الأرض ويحركها ليمنحها الحياة.

الفصل التاسع

قبل أن يفتح الصبح نوافذه، أطلت الكاهنة ماتيا على غرفة الرومانية مانويلا، وفتحت لها قلبها كله، حينما سألتها ما الذي يجمعك به؟ أو ما يجمعكما لتحزني عليه هكذا؟ لكن مانويلا، أجابتها على سؤالها بسؤال:

ـ أنا لا أحس أنه أعمى. لمَ هو أعمى؟

ـ يا ابنتي لقد أذى ضفدعة. وأذية الضفدعة، عند شعبنا تؤدي إلى الإصابة بالعمى! انحرافه حمل العمى إلى ضوء عينيه. الضفادع حيوانات مقدسة عندنا لكنه لم يفهم أن تقديسها عند الأمازيغ لا يعني عبادتها... أذيتها تعني المسّ من مشاعرنا، وهل يوجد شيء يؤذي أكثر من أن تؤذي مشاعر غيرك؟

الأمر أعمق من المعتقد، مرتبط بجنس الإنسان، والإنسان أينما كان فكره أو جنسه هو حر فيما يرى ويتصور ويتخيل..

ما يعتقده ناجيبيان لا يمنح الأرض السكينة حتى لو أنه يمثل السّماء. أن تأتي بشيء غريب عن قومك فهذا يعني أن تكون ليّنا معهم لا أن تتحداهم قائلا إن لم تطيعوني لا اسم لكم.

الرسالة هي أن تكون لهم سندا ولو تركوك ولو حاربوك.

ـ أيتها الكاهنة إذا هو ملعون، لأنه بعيد عنكم... فقد سمعت عن معتقداتكم أنّ الطفل الذي تُغسل ثيابه قبل أربعين يوما يموت رضيعا.

ـ نعم فعلوها به، وغسلوا ثيابه قبل أن يشتدّ عوده. لكنّي لم أخبر أحدا ولم أعرف إلى الأن لمَ لمْ يمت يا مانويلا. دعيني يا بنيتي أعود إليه وأتفقده، فليس لدى هذا المشرد من يطمئن عليه غير هذه العجوز التي ترينها أمامك.

أثّرت كلمات الكاهنة في زوجة بوكوس فأحنت رأسها بين كتفيها لتخفي وجهها الذي بدأ يعزف كقيثارة كتب عليها البكاء.

لم تعد نومينسا تحتمل الانتظار هناك ولو قليلا، رغم أن أمدياز أطلق سراحها، لكنّه لم يحقق حلمها لتخرج وتزور قبر حبيبها أنير... نعم هو فتح باب غرفتها، لكنّه لم يسمح لها بالتنقل إلا داخل أروقة القصر. أو أن تروّح عن نفسها في الحديقة عندما تنغلق على ذاتها. وبينما كانت المسكينة تمشي بمفردها ترفع رأسها إلى السّماء وتلومها سائلة:

"لم لا تأتي النّهاية الآن فإنّهم سرقوا منامي؟!! لا أرى أحلامي، لم أعد أشاهد شيئا، غير غراب يجلس فوق غصن حياتي الذابل."

عزلتها هذه، كعزلة عصفورة منتوفة الرّيش ويسألها الجميع لم لا تطيرين؟!! ألا يعجبك شيء ؟! مالك لا تغنين؟ لا تكوني هكذا!!! اصعدي إلى السّماء وستغمرك السّعادة. ألا يعلمون أو أنّهم يسخرون منها؟ ألا يدركون أنّ المظاهر خدّاعة فالرياح التي

تحمل الأوراق إنما هي تعبث بها وترميها بعيدا حتى لا تطير إلى الأغصان، وتعود إلى ذلك الحلم الجميل الذي كان يحملها.
بينما كان الحزن يكسر نومينسا من كل نواحيها، فلا التذكُّر يريحها ولا النّسيان يسعدها، سمعت صراخ طفل صغير وهي مارّة قرب بوابة القصر في طريق عودتها إلى غرفتها. كان يصرخ ويبكي من وجع الانتظار. ويد الحراس القاسية تضغط على يديه النّحيفتين بقوة لتعذبهما وشفاهه ترتعش. انقبض قلب نومينسا عندما رأته يصرخ:
ـ أريد الرغيف، أريد الرغيف.أنا الطفل الأمازيغي أهان. أعيش ظمآنًا بعيدا عن السلام، كُسرت قدمي. أُصبت. إني أبكي. تعبت. أنجدوني، أنجدوني. الحراس يعذبونني. أريد أن أتذوق الطعام. لماذا تمضغونه وحدكم بشراسة؟! أنتم من أحرقتكم حقل أبي وشوهتم أرضي التي تدفئني.
ثم أغمي عليه، وحراس القصر كالجدران لم تصبهم تعاسة هذا المشهد المليء بالكآبة والحزن. نعم في قلوبهم مرض وزادهم جشع الملك أمدياز وجماعة الاثني عشر، وبوكوس مرضا على مرض.
ـ أ لأنكم حراس ملك سفيه تتعالون على النّاس؟ ابتعدوا. تبت يدُ من تآمر فرسان جيش أنير، بأن توجع أياديهم الضّعفاء.
هجمت نومينسا بسرعة البصر على أحد حراس البوابة وانقضت عليه. والغريب أنّه لم يستطع أن يدافع عن نفسه! كأنّه خجل منها أو لسذاجته! سحبت سيفه من غمده، قبل أن

يخمن كيف سيدافع عن نفسه، كأنها قطعت تيار الضوء من عينيه وجعلت من أمامه سدًا فأعمته وهو لا يُبصر. وضعت السيف على رقبته كأنّها تخنقه به! وقالت متعالية بلغة الفارس الذي لا يُشق له غبار:

ـ إذا تعجل واحد فيكم وحاول إشهار سيفه فلن أتوانى عن ذبحه وكسر يد من يحاول المقاومة...

فعلا أثبتت نومينسا أنّ السلاح قد يجرح عنق صاحبه إن لم يُجد استعماله. وهذا ما حصل لكبير الحرّاس الذي تلألأت جروحه وهي تذبحه ببطء! بدأ عنقه ينزف. ولأنّه كان يريد أن ينجو منها. صرخ قائلا:

ـ تمهلي أيتها الأميرة الطيبة. سأفعل ما تريدين.

ـ قل لهم أن يفتحوا البوابة حالا.. وليدخلوا الطفل. اجلبوه إلى حضني، ولن أهرب لأنّي حرة، والحرة لا تكون سببا في قتل جنود من جيش زوجها، وإن كنتم لا تستحقون العيش! هل ماتت الإنسانية في قلوبكم ألا تخجلون؟! ستندمون على فعلتكم هذه. وأنت هل تعرف لماذا لن أقتلك يا كبير الحرّاس؟ لأنّك ميت عندما أعدمت إنسانيتك!

من الهول، قال:

ـ أسرعوا. افتحوا لها البوابة.

وقبل حتى أن يتكلم ويأمرهم كشف لها الحراس الطريق؟ أهو الندم على خطيئتهم أم هو الخوف على حياة كبيرهم لا أحد يعلم؟ المهم ركضت نومينسا وحملته من على الأرض ومشت

بالطفل الصغير كأنّها تطير لتنقذه. استيقظ ناجيبيان الأعمى، نجا جسده المعبّأ بالسم، سُمّ جسد مانويلا الرومانية. لكن ماذا يقول هذا الأحمق؟

ـ أريد أن أشرب.

كان يشعر بالظمأ. تتراءى له قنينة الخمر، فيناغيها ويحادثها كأنها حبيبته. لم يلبث أن بدأ بالصراخ وكأنّ الشوق قد استبد به وراح يهذي:

-من دخل الغرفة وسرق حبيبتي منّي؟ لن أسمح لأحد بأن يقبلها أو يأخذ جرعة من فمها وعنقها غيري، وحدي أتمزق بحمى اللذة وأصاب بالفرح وأنسى الكآبة...

وعند ذكر الكآبة أصابت ناجيبيان هستيريا أصبح خلالها يتكلم كالأطفال قال شعرا غريبا محزنا جدا:

كئيبٌ أنا مثل الليلِ
غامقٌ من شدّة الوحدة
مثل السّراب،
صدّقتُ أنّي استطعتُ الظهور،
واخْتَفَيتُ مِنَ الحقيقةِ!!
كرحلةِ أطلالٍ تبْقى خاليَةً
كئيبٌ ولا أريدُ ذلك
أودُّ البقاءَ
ولا أتواصلُ
كأنّي خُلقْتُ

إن ابتعدت عليّ

وصرخ:

ـ اتركوني لأعيش ..أو أموت دفعة واحدة.

لم هو خائف هكذا؟ هل هو مصاب بعفن الحياة؟ إنّه يبدو أضعف من الغزالة. من يوقف جنونه ؟! بدأ يطلق يديه الاثنتين. يركض داخل فناء غرفته ظانا أنه في القبر وسيخرج طائرًا مترنما إلى الحياة ساخرًا من الضيق، لكنه فجأة يضع يده على قلبه ويسقط على الأرض. يتلوى كأن أشواكا حادة اخترقت قلبه الصغير. فأصبح لونه أصفر كثمرة الليمون. وكالصريع ساقه تهتز فوق الأرض هزًا ودموعه تنهمر رخيصة، مبللة أرضية الغرفة. أخذ يتحدث مع شخص ما في الغرفة. ربما كان يتحرك معه. أو هو الشيء الشرير الذي مسّ عقله وجعله يتصرف وكأنه مخبول. فقال محدثًا نفسه:

ـ لماذا لا تصبح لغة الأمازيغ لغة واحدة و نتكلم كرجل واحد

(Tacelḥit)، (Taqbaylit) ، (TamaziɣT) ، (Riffian)

(TamaziɣT) ، (Tacawit)، (Tamahaq)، (Tamaceq)

يجب أن تكون لنا لوحة تخصنا وحدنا، نوثق فيها تاريخنا، أسماء طيورنا، وأنواع وشومنا، أسئلتنا وخرافاتنا، جروحنا. علّنا ننقذ الأجيال القادمة من حرّاس الفضيلة من يرفضون اختلاف الميولات، لأنهم يحبون جمع الصحف كالمقابر.. ويعلقون أصابع الأطفال فوق قرون الخرفان التي يعبدونها.

كان ناجيبيان يتحدث واللعاب يسيل من فمه، فكأنّ تأثير السم مازال يسري في بدنه ليفقده صوابه قبل أن يتفطن إليه أحد وينقذه!

ـ أين الكاهنة ماتيا، أكانت تكذب على مانويلا حين أخبرتها بأنه ليس لدى هذا المشرد من يطمئن عليه غيرها؟ يجب أن أقتل بوكوس كما قتلت تلك الضفدعة، فقدت بصري وسأفقد حياتي. إنّه وزوجته دخلاء على ثقافتنا وحضارتنا، أرسلوهم لأن عيونهم على إرثنا، يريدونه أن ينام ليغيروه. أعرف في ماذا يفكرون، لدينا كل شيء، وهم لا يملكون شيئا، الطبيعة تكرههم. أرسلوهم ليجففوا منابعنا ويقنعوا الحمقى منّا أن السّماء هي الخائنة. مانويلا الرومانية تغوي نساء الأمازيغ، تزور الفقراء وتشتري لهم الثياب. سنخلع ملابسنا لنرتدي ملابسهم، لا ترتدوا ملابسهم. أيها الأمازيغ إنّكم ترتدون النّار. وعلى هذا الوقع بينما كان ناجيبيان يغفو ويستيقظ، كمن يُصْقَلُ في مظاهر مختلفة، توقفت حركة الكاهنة ماتيا عند الباب، وفقدت صوابها، لا تعرف ماذا تفعل هل تشعر بالسّعادة، أم تعود إلى اليأس؟ أتحزن أم تفرح، لقد أثار رعبها وحيرتها! أصابعه وفمه يتحركان وجسده بارد. حاولت أن تمسكه من يده لتساعده على النّهوض، لكنه ثقيل... فحركته:

ـ يا بني أتسمعني هل أنت بخير؟ انظر إلي قليلا يا ناجيبيان!

-أريد أن أشرب سأموتُ من العطش.

بمجرد أن سمعت الكاهنة ماتيا صوته، عرفت أنّ قلبه مازال ممتلئًا بالحياة...

ـ لا تخف يا بني، سأجلب لك الماء حالاً. لا تنم أو تغمض عينيك، انتظرني وستعيش. لكن ناجيبيان فاجأها ليقول ببرود:

ـ لم يعد هناك جَمالٌ في الماء، لا أريد أن أعيش!

الماء مشروبُ الفقراء

لن أعاني من ظمئه

سأموت من العطش

أو أجرّب ظمأ آخر...

ظمئ ظمأ آخر!

يكره دوران الحياة الرتيب،

آخر داخل رأسي؟!

ويجعلني أترنّح فلا أحس بالأسى

على من هم مثلي!

من لم يستطيعوا أن يكونوا غير ما هم عليه.

ـ أيّها السّكير المريض اصنع عالما أخر لك. استيقظ، استيقظ. أمسك بيدي وعد إلى فراشك، وإلا قتلَتكَ ماتيا التي كاد أن يسقط قلبها العجوز من الخوف عليك ...انهض، قلت لك انهض وإلا قتلتك عد إلى فراشك، أنا أدرك ما لا تدركه الأبصار العادية...اصمت سيتواصل الرقص وستتواصل المعارك في تماجورت.

- أُقتُليني إذا.

وعلى وقع كلمة اقتُليني، أمسكته الكاهنة ماتيا من أذنيه وبيديها الطويلتين كما تفعل الأم مع طفلها الشقي جذبته إلى الفراش.
أخذ ناجيبيان يصرخ:
ـ لا تهوري أنت تؤلمينني يا ماتيا، أتركيني وسأعود إلى الفراش وحدي، منذ أن عرفتك وأنت لا تتوانين عن معاقبتي لأتفه الأسباب.
وعلى إثر هذا المشهد المضحك، أطلت مانويلا بوجهها الطفولي من وراء الباب وما إن لمحت الأعمى يسعى ويتحرك، حتى تنفست الصعداء:
-إنّه بخير.
لم تستطع احتواء الفرح داخلها فقامت بشيء غريب عن عاداتها ابتدعه الأمازيغ. وضعت يدها على فمها وبسرعة دون توقف أخذت تحرك لسانها بشكل متتابع يمينا ويسارا وأخرجت من حلقها زغرودة فرح. والزّغاريد ليست مجرد لعبة ساذجة تلعبها نساء الأمازيغ، أو صراخا لا فائدة منه. إنّها ولولة المرأة التي تناشد بها الآلهة، لتحمي الأفراح. شكلها الفني الأنثوي الذي تعبر به عن سعادتها مثلما تعبر المناديل على تجفيف الدموع أو الزكام.
ببرود جدي وابتسامة صفراء غادرت الكاهنة ماتيا الغرفة. وقبل أن تغادر، تمتمت بكلام غير مفهوم إلا بضع كلمات متناثرة:
ـ قلبك الجائع إن لم يتذوق الحب لن يشبع!

بجرأة غريبة أمسكته من يديه! بدت مانويلا الرومانية من بعيد كعاشقة تطلب الصفح من حبيبها أن "اصفح عنّي وسأقبلكَ ألف قبلة..." أو توصيه "لا تجاويف في جسدي، لا تكسرني أكثر "

لكن ناجيبيان الأعمى حاول تجنب هذه الوردة قبل أن تقطف قلبه! كالعادة استدعى رياحه الهائجة لتطيره بعيدا عنها حتى لا يعلق مع امرأة قد تحبه!! لكنها أوصدت الغرفة والنوافذ والجدران. لتقول له:

ـ أرجوك لا تدمر نفسك، ابق قليلا هنا حتى ترتاح وتشفى! أخبرتني ماتيا كل شيء عنك. دروبك الطويلة ستقتلك! إلى متى وأنت تنام في العراء؟! إلى متى وفمك مملوء إما بالخمر أو الحزن؟! تعيش في غرفة ضيقة سوداء لا تصلح إلا للموت! كيف أصبح وطنك قبرا يا ناجيبيان؟!

رد عليها:

ـ هذا الوطن المزعوم. كلّ شيء في تماجورت صغير وضيق. طعام الأمازيغ مفقود. لم يترك جشع التيديت جماعة الاثني عشر فرصة للحياة لغيرهم؟!

حاولت أن تهون عليه قائلة:

ـ كن بخير الأن. استعد عافيتك، والغد على الأرجح، سيكون جيدا.

ـ لا تقولي هذا لي أيتها الرومانية. أفهمك جيدا! على الأمازيغ أن يكونوا بخير. ما أنا إلا واحد، ومهما بلغت عظمتي لن أستطيع

التغيير وحدي، يسهل قتل الثائر عندنا. على هذا المشروع أن يستمر. على المجموعة أن تستمر في ...

لم تفهم مانويلا ماذا يكتب الأعمى ناجيبيان بفمه المتكلم. فقالت:

ـ إنّك أنقذت حياتي.

قالتها كأنّها تقول ألن تتوقف عن الكلام لتقبلني؟! لكن ماذا حصل ؟!! بماذا تفوه الأعمى ولماذا يقول لها:

ـ سأنقذ تماجورت منك ومن زوجك قريبا. دعيني، دعيني أذهب! أنت غريبة عنا والغرباء في العادة مؤذون؟! لكنكم تؤذون أشجارنا، وأطفالنا ينبتون. تجففون العيون والينابيع، والأمازيغ ينبعون بالحياة، لا ينضبون ؟!

عدوانية الأمازيغي مع الرومانية حولت ودّها فعلا إلى شتائم.

الويل له من غضبها!

ـ حسنا... قرّرتَ الموتَ. اذهب ومت في غرفتك الصغيرة الضيقة. ولكن تذكر، أنت أيضا كجماعة الاثني عشر تقودك البهيمة. لقد أسقطتني على الأرض أيها السّافل وكحيوان هائج أخذت تقبلني! واليوم أصبحت أنيابك مهذبة للغاية وتتحدث عن المبادئ وتصفنا باللصوص وعديمي الشرف. أنا مانويلا أجمل امرأة في العالم لست امرأة محطمة أو مجنونة حتّى أحلم بأعمى يراقصني. أو أنتظر من معدوم مثلك أن يهديني هدية في عيد ميلادي. لا أعرف لماذا حصل هذا لكن من حسن حظك أنك أهديتني الحياة بدل الموت. ولهذا السبب لن أهديك إلى الموت

أيضا. غصبا عنك... لن تخرج من هنا إلا حيا وبعد أن تشفى شراييناك من بقايا هذا السّم. ارحل غير مأسوف عليك!

-إياك أن تعاند زوجتي كثيرا.

قالها الذي يظهر ويختفي كالشّبح. وهو يقبل مانويلا أمامه ليغيظه. قال لها:

ـ حبيبتي، لا تسألي ناجيبيان عن شيء لأنّه لا يتذوق شيئا غير هذا. وهذا هو الذي سيبقيه هنا حتى يشفى. اِلحقْ بي جلبت لك الدّواء. هيا لنشرب حتى يغمى عليك ويغمى عليّ. لا تراني ولا أراك!

- نعم، نعم يا بوكوس سأبقى معكم في القصر. قلت لها ولم تفهم! كم لديك؟! هل جلبت الكثير، أين سنجلس؟!

وغادر ناجيبيان الغرفة وراء زوجها، وهو يلهث كالكلب وراء المتعة. مرّ من أمامها كطيف متجاهلا لهفتها عليه. أما هي فقد نظرت له نظرة تَبكي. وكيف تبتسم وعشيقها كنيرون يشرب وعاصمته تحترق أمامه؟! أبسبب لذة فموية حسّية ورغبة خمرية نسي الأعمى ناجيبيان أنّه هنا ليدافع عن أرضه وعرضه؟! لا نعرف. بفضل يدي نومينسا الحنونتين، اللّتين أخرجتاه من حلق الموت بصعوبة فأذاقته حليب البلاد، بعد أن كان جائعا يبحث عن الخبز والماء. بعد أن طبطبت على الطفل الصغير وغذته وسقته، حدّثها كما يحدّث أمه عن هول المجاعة الذي يعاني منها الأمازيغ في الخارج. عن بطون الفقراء الصغيرة ومع ذلك تظل جائعة. عن أراضي المزارعين البسطاء التي تحولت إلى

جثث، ولم تعد تنتج شيئا. فالفلاح في تماجورت أهمل أرضه ولم يعد حتى يعرف كيف يحفر. فاستغل بوكوس الشباب اليابس هنا بعد موت أحلامهم. قدم لهم جميع المسكرات ليتسلوا بها ويقتلوا أنفسهم في آن واحد. كل يوم تنضب ساقية ويجف نبع، لم يتبق إلا سواقي الأنين مجرّد أخاديد جافة تجرح وجه الأرض. وأمدياز الملك كان يعيش بشكل جيد مع حاشيته، لكن سلطته مطعونة في شرفها وكيف لا؟! وهو يستلقي مرتاحا على سرير ملكه الوثير ولا يعذبه ضميره وتلك الصّبية الجميلة تركض حافية القدمين. لا عشبة أمامها أو سنبلة طرية تقطفها، ولا مسالك خضراء مليئة بالأناشيد والقطط والأرانب والعصافير لتمرح معهم. فقط الأرض الحارقة تكوي أناملها والدّخان كثيف لا يحد..! حتى لا يعثر أحد على جثة المسكينة! ولهذه الأسباب وبعد أن ضمت نومينسا الطفل إليها أطلقت يديها لتقسم قسما غليظا

قالت:

ـ منذ هذا اليوم لن ألطخ شفتيّ بالضغى عليك يا أنير، مازلت متشبثة بحبك، ولن أسمح للغياب أن يقتنصك لحظة واحدة من قلبي. لكن على نومينسا منذ الأن ألا تهلع أو تحزن. سأفعل هذا من أجلك. ومن أجلك سأجعل نهار جماعة الاثني عشر حالك السواد سأحتوي شعبك، مثلما كنت دائما تحلم يا حبيبي. وسيستفيق الأمازيغ بعيدا عن أفكار الكهنة الشريرة لأنّهم أحرار. أعدك بأنني لن أسمح لبوكوس بأن يخرب تماجورت

وما بنيتَ. حرب روما الباردة على الأمازيغ مجرد حرب تائهة فأجسادنا حارة. سأغرز سيفك يا أنير في جسد كل أمازيغي خائن بارد.

أرسلت نومينسا في طلب الكاهنة ماتيا على ما يبدو أن أمرا خطيرا سيحصل قريبا. وكأن هذا الوطن البعيد أصبح قريبا من الأمازيغ...

السّاعة بعد منتصف اللّيل تحمل الكاهنة شيئا بين يديها. تخفيه كأنه شيء عزيز فلا تتركه إلا عندما تنام لتخبئه تحت الوسادة. لكنّ العجوز تبكي كأنّها استمعت لأغنية حزينة فكان لمناجاتها وقع مهيب في سكون الليل:

يا أيتها الآلهة الطيبة

لا تنظري بصمت

لديهم كل شيء

ولدينا أنت..

كل شيء صامت، البشر صامتون، العدالة صامتة، واليوم اتبّع ليلة البارحة فصمتت هذه اللّيلة أيضا. ألهذا تمشي ماتيا خائفة؟! تارة تقف بجانب شجرة زيتون سوداء تمسح على ضروعها الميتة.. "لا تخافي ستظلين خضراء". وتارة تتعثر فتسقط بقوة وترتطم بالأرض في عنف كأنّها ألقت بنفسها من علٍ. ها هي تمر بجانب زريبة حيوانات خالية، وبيت مؤونة فارغ لقصر أمازيغي، تحاول أن تغمض عينيها حتى لا ترى، ورغم هذا تَبقى عيناها مفتوحتان من الحزن.

مشت الكاهنة دون رغبة لتبلغ السّاحة الحمراء، وما إن رآها الملك السّابق هوار بن أوريغ بن برنس من بعيد حتى عرفها. فاقتربت منه مسرعة، رأته كالأسد الذي لا يذله قفص، فالأسود مخيفة حتى في أسرها. وقفت أمامه وقبل أن تتكلم فهم أن وقفتها تدل على قدوم ثورة. أومأت برأسها، وقد شعرت بألمه يسري في جسدها فانتفضت عروقها واشتدّ ما بها من حزن عليه. قبل أن تسأله الكاهنة ظلت تنظر إليه وتهذي كعادتها:

ـ جذعي سيعود إلى جذوره لا تجهشوا بالبكاء عليّ؟

ـ هل هذا وقت الهذيان يا ماتيا؟ رأسي معبّأ بأفكار مشوشة لو أطلقتها ببلاهة لتسببت بخراب هذا العالم. أعلم أنّك جئت لأمر جلل قولي ما عندك وارحلي بسرعة. فلاميا أخت نومينسا..

أراد هوار أن يحذّرها من صاحبة القلب المكسور التي أحبته ولم يفتح لها نوافذ قلبه لأنّه لم يثق بها.

كلّ ليلة تأتي شقيقة نومينسا لترمي له الكسرة من بعيد وهو كالطائر في قفصه، ورغم ما تفعله من أجله لم يكن يصغي إليها أو يسألها فيكبت في نفسه أسئلة كثيرة تعذبه. أسئلة عن الروح التي أحبها وتركت جسده وحيدا في هذه المحنة...أسئلة عن الجفاف الذي يسكن صدره عندما يطرده الحبيب من حضنه. في هذه اللّيلة المشؤومة جاءت متخفية كما توقع هوار، ولأنّ الكاهنة عجوز ضعيفة لم ترها أو تحسّ باقتفاء خطوها. لاميا رأتها ثم لحقتها وسمعتهما ومن شدة كرهها لأختها نومينسا غَرُبَت

بسرعة قبل أن تعرف حتّى ماذا تحمل الرسالة. ذهبت مسرعة إلى الملك أمدياز تحمل الدّسيسة محذّرة إياه:

ـ اسمع ماذا يقولون عنك. إنّ الكاهنة تختلي بهوار الآن في وحشة هذا الظلام، كامرأة عاشقة تلتقي حبيبها سرا دون أمل لتتآمر عليكم، اقبضوا عليها واقتلوها قبل أن تشعلها وتؤذيكم.

وفعلا لم يتأخر الملك أمدياز وحرّاسه في الوصول إلى السّاحة الحمراء وهناك وجدوها تتحدث معه وهو يزأر .

أُلقي القبض على الكاهنة متلبسة وتمكن هذا البائس من تبخير جزء كبير من أحلام نومينسا. قطع عرقا من جسدها وجففه، عرقا حنونا اسمه الكاهنة. كانت أمّها التي لم تلدها، كانت أهلها عاداتها وتقاليدها، ريشها الذي يساعدها على الطيران عندما تقفز عاجزة عن التحليق فتطيرها كحمامة_عطشى هاربة من سجنها لرغبة لديها في ذرف دمعة من هديلها فوق قبر شخص تحبه. وفي اللّيلة ذاتها زار أمدياز نومينسا في غرفتها من حسن حظها أنّه لم يعرف كل التّفاصيل لأنّ نباح أختها لم يكن كافيا ليورطها. وهوار كان ذكيا. ما إن قرأ الرسالة حتى أكلها فابتلعت أسرارها معدته. لكنّه استغل إيقاعه بالكاهنة والتّهمة الخطيرة التّي سترمي بها إلى التهلكة. مخالفة أوامر مجلس الاثني عشر والحديث مع ملعون في الخلاء وحثّه على الهرب.

كان يعي جيدا أنّ نومينسا لا تطيق أن ترى مكروهًا في الكاهنة فما بالك السّماح لهم بقتلها، استغل نقطة ضعفها هذه وعجزها ليهدّدها مبتزا:

-يوم واحد لا غيره، لتفكري! إما أن تتزوجيني وأعفو عن العجوز أو انعقي كالبومة فوق جثتها. كوني لي ولن يحصل لها مكروه.
فعلا من كان يتخيل أن هذا التّيديت البائس يخرج من جحره وينزل من الجبل ليصبح ملكا على أقدم شعب، فيجوعهم ويريق دماءهم، ثم يستبيح أعظم نسائهم.
قضى أمدياز ليلته يتحسّس كامل أعضائه، بينما هو يتذكر مفاتنها. إنّه يمارس عادة شاذة. بات يلهث متخيلا إياها عارية أمامه تقول له كلاما فيه الكثير من الحب للحصول على إثارة أكبر، أمسك تفاحة وراح يضعها بين شفتيه، بتلذذ، يعضها، يقضمها حتى خُيّل له أنّه يمارس الحب مع امرأة والتفاحة نهدها بين شفتيه. قد تدفع البهيمة الإنسان بأن يفكر في أشياء غريبة لا تحمله إلاّ على الجنون.
ما إن انتشى ناجيبيان حتى اختفى نديمه بوكوس كالشّبح كأنه يتعامل مع قوى ما وراء الطبيعة. وفي نفس الوقت سمع صراخ امرأة وجلبة. وكالعادة منعته شهامته أن يصم أذنيه فاندفع يتتبع هذا الصوت القريب إلى قلبه، فانتهى به الأمر داخل غرفتها. كانت ترتدي قميص نوم أحمر من الحرير يبرز مفاتنها لتثير زوجها الذّي لا يريد أن يحاصرها في الفراش. رقبتها البيضاء الشفافة الطويلة. أعتى رجل أمام حسّها يصبح هشا ويهوي كريشة. ناعمة لدرجة أنّك تحس وأنت تتفرس فيها أنّها ستنبت وردة. تقفز بخفة كالقطّة بقدميها الصغيرتين:
-ابتعد عنّي مقرف، مقرف أنقذوني .. أنقذوني.

من يراها هكذا يخال أنّها تحارب عدوا خطرا يهدد حياتها. ولكنّ كل ما في الأمر أنه جرذ لم يعثر على القمح في هذا القحط والجدب إلاّ هنا!..

انفجر ناجيبيان ضاحكا. وبعد أن تتبع صرير الجرذ أطبق عليه بعصاه فقتله. ثم واصل ضحكه هامًا مغادرة الغرفة ساخرا من جبن وجهها الخجول، وداخله يقول كل هذا من أجل فأر؟

ـ أيها المتسول. قالت له مانويلا. سأكافئك مقابل تعبك. قبل أن تغادر القصر سنعطيك الكثير من الطّعام وملابس نظيفة. كلامها الجارح وقع كحد السيف على رقبة الأعمى قال ونفسه تتخبط.

-لست متسولا. قضيت كل سنواتي فقيرا ولم أطلب من بشريّ حنانا.

أسرع الخطى قبل أن يسقط قلبه من الحزن... فأدركت حينها أنّها ارتكبت خطيئة كبرى. ندمت من أذية كلماتها السّوداء وهيَاجِها المتغطرس، وأحست بأنوثتها أنّها ستخسر منقذها ومنجدها. همت به قبل أن يغادر، وقفت أمامه كالسّد وأغلقت الباب.

-أرجوك ابق معي. لا تغادر ـ ارتمت مانويلا في حضنه كأنّها تترجاه ـ لا أحد لي هنا غيرك. متعبة.. متعبة أعاني من وجع شديد الانتظار يا ناجيبيان.

وعلى ذكر الانتظار، في الخارج هنالك ملامح تتغير. يَحث قائد الجيش حصانه فيسبح مع الريح باتجاه قصر أمدياز ومعه زمرة

من الفرسان الأمازيغ كأنّهم قدر يطوي أقدارًا عند كل خطوة يخطونها .

في الداخل شيء آخر يتغير ... مانويلا ممددة على فراشها يمرّر فمه ويده على جسدها، وكأنّه يشعله بالكبريت لتنتفض تحته مطالبة إياه بمزيد من الحب والقبلات المليئة بالشّغف. لا نعرف كيف تمكنا من كسر الحواجز؟ إنّ مشاعرها الأن مشاعر حب أبدي جاء يئن متأخرا

ـ أحبكَ...

وهو يداعب جسدها، تغلق عينيها، كأنّها تحوّل لحظتها معه إلى حلم. وهو يقبّل عنقها من الأمام تقرّب شفتيها منه ببطء كفتاة خجولة تقبّل حبيبها لأول مرّة فيسحبها إليه بعمق شديد، لتتمسك به بقوة، حتى لا يسرقه موج الجزر الجبان الخاضع للبحر من شاطئ قلبها. يداها على كتفيه تدفعه في خجل ليعود إلى الوراء لكنّه يزداد التصاقًا بها:

ـ دعيني أدفئ جسدك لست باردًا كالشّتاء.

في النّهاية رفع شعرها اقترب ببطء من أذنها، عضها لتتأوه وتنادي حبيبي أذابني، استسلمت له وأغمضت عينيها بارتياح.

في هذه الأثناء كانت الكاهنة ماتيا في حجرة مليئة بآلام أجساد ذاقت طعم الموت على دفعات فكانت تصم أذنيها وكأنها تسمع أصواتهم المعذبة ونشيج أرواحهم المكبلة.

التّيديت أنثى بوكوس أصبح الآن أداة قتل ومشرطا لاقتلاع جلدة رأس النّساء.

ـ أيّها الكاهنة الثرثارة، تجاوزت.

ويفتح فمها بالقوة يضع داخله إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ يعضُّ لسانَها بإبره ويجرحها كلما همّت بطلب الرحمة أو حاولت إصدار أنين، يتلوَّى لم تعد له القدرة على هضم أوجاعه في سكوت.

ـ لا تريدين الاعتراف؟ تخبئين الحقيقة بين أسنانك. حسنا.. فمك الآن ومن بعد سنقطع أصابع يدك العشرة، ومن بعد نغلق عينك إلى الأبد.. وتأكدي ..لن يرانا أحد نفعل ذلك. تكلمي. قولي ماذا كنت تخططين مع هوار؟ أو ماذا كان يطلب منك؟!

ـ لا تسألني عن شيء قالت الكاهنة هذا والمحيّر أنّها تتكلم دون أن تتألم. هذه البلاد لن تضيع من بعدي. وأنا كنت في مجرّد نزهة، سأغسل وجهي وأستريح الأن.

حتى الدّم الذي ينزُّ من بين شفتيها لا يبدو عليه الحزن، قادم من أعماقها فرحا يتطاير في الفضاء الرحب يطارد ضحكة.

بعد أن أنهت كلامها تنفست بعمق ولذة كأنّ رئتيها شمّت رائحة جميلة سعيدة بعيدَة عن هذه التّعاسة. زاد كلام الكاهنة الطيّبة في تغذية حقد التيديت الذي قال لها:

ـ على ما يبدو أنّك لا تتعبين؟

أحضر من زاوية بعيدة برميلا مليئا بالماء ولم ينتظر حتى قليلا علّها تتراجع أو تقول له شيئا مفيدا. شدّها من شعرها بغُلّ... كأنّه يضع رأسها في بئر عميقة. أنزل وجهها في الماء عدة مرّات وهي تشهق علّ الطمأنينة التّي في صدرها تخرج.

ـ ألا تستطيعين التّنفس تحت الماء؟ أين قواك الخارقة الأن؟

ُطفي فوقه. أو اشربي قليلا من الماء ألست عطشى؟
يضحك ساخرا من هوانها وقوة بطشه. لم يكتف بهذا. وليزيد من الإهانة قيدها بسعف نخلة جاف. ربطها كما تربط العنزة من أطرافها عند نحرها. وبعد أن كتّفها، عرّاها! فأغمضت العجوز المسكينة عينيها كأنّها تتمنى الموت. صرخت صرخة متألمة تهز قلب البشر والحيوانات والشّجر! لكن ماذا ستفعل وهي العاجزة المكتوفة اليدين؟! حاولت أن تغطي صدرها لكن دون جدوى! قال لها:
ـ لا فائدة من الصّراخ. سأقتلع ثديك من جذوره. ستتلوين وتئنين بعذاب شديد قبل موتك.
في يده أداة حادة مصنوعة من الصّوان. حجر يشبه القوس يبدو كأنّه تعرض للقضم بأسنان وحش تكسرت أنيابه بقيت مفتتة داخل التجويف. هذا الشيء يشبه العضاضة الكثيرة الأسنان.. بكل قسوة وضع صدرها الهرم داخله وأخذ يضغط بقوة عليه ويجرحه بأحرف تجويف هذا الصوان الحاد. من شدة الألم أغمي على الكاهنة وتدلى لسانها كشخص يتدلى من حبل مشنقة.
ـ أين أنت يا نومينسا ماذا تفعلين والكاهنة بين يدي الشرّير ورائحة هذا الشّر كريهة فاسدة. أنقذيها قبل أن..!
وجه نومينسا الآن.. مليء بالطّوفان الذي يسخر من كلّ هذا الخراب. يعده أنّه سيرميه خارج عاصمة الأمازيغ لتعود تماجورت نظيفة كما كانت. لكن كيف امتلكت كلّ تلك الشّجاعة ورمت

الخوف وراءها. لتجتاز وحدها تلك الممرات القديمة والدهاليز السّرية الغير نقية. لقد غادرت القصر سرّا، زحفا، مشيا، وطيرانا دون أن تنظر إلى اللّيل الغير بريء من سواده لتتعبّد قبر زوجها. تعبد نومينسا أنير. وعبادة القبور عبادة روحية مارسها الأمازيغ منذ زمن بعيد؟ وكيف لا يمجدون أجدادهم أو يغلقون أعينهم ولا يسمعون جدّاتهم تروي لهم حكاية القفصي الذي حارب طور الآدمي المتوحش داخله. صاحب أوّل رسالة تحدثت عن ماهية الإنسان الذّي يعبّر، الإنسان الذي يتخيل كيف يُعدّ بيديه طعامه وكيف يصنع بيديه سلاحه. الذي عاد من بعيد ليلوح لربه من جديد قائلا:

ـ مرضت ولن أنساك يا إلهي، أوقدت النّار لأودّع الزمن القديم ولأثبت للحياة أن الزّمن العبثي لم يعد موجودا في حياتي.

هذه المرّة لا تبكي هذه الزّوجة نومينسا زوجها جاءت ليستمع إليها:

ـ حبيبي لا تخف مازلت أحلم بك دائما. مازلت أتذكر عشاءنا الأخير. ومازلت أنتظرك. أخاطب الآن روحك فلتصعد إليها رسالة روحي. روحي إليك أينما كنت. أنا مكتوبة لك في كل حرف من حروف أبجدية اسمك. لكن سامحني قد أصعد إلى حتفي قبل أن تعود! اسمح لي بعد إذنك. قرّرت مضطرّة أن أجلبه يركض لاهثا ورائي. لا تخف حبيبي لن أتزّوج أمدياز. أنا فقط سأقتله. وكيف بعد أن تزوجتكَ يا إلهي، ورقصت معك في الأعالي أين خلقتني بعيدا عن الشّهوات! أسقط إلى الأرض المصابة بمسّ

الإنسان العادي؟ وأطلّق قلبي وأتزوج شهوانيا خرب أرضه من أجل جسده.؟! لا تخف حبيبي لا تخف، كل ما في الأمر سأوهمه لأقتله وأنقذ أمّنا الكاهنة.

بعد أن عذّب العجوز، ولم يربح شيئا من تعذيبه لها، أصبح يقوم بطقوس غريبة غير تلك الطقوس الشيطانية التّي فقد فيها هذا التيديت رجولته مع بوكوس فأصبح مخنثا سلبيا. هل يريد أن يسحر الكاهنة لعلّها تخرج من فمها بعض الكلمات والحكايات التي تورطها أكثر وتورط أشخاص أخرين معها كنومنيسا مثلا؟!.

قبل غروب الشمس بوقت قصير، أوقد مشاعل عديدة ومع اقتراب الصباح أخذ ينفخ في قرن كبش. الصوت قبيح جدا كصوت رجل قال لامرأة تحبه، "أنا لا أحبك". والغريب المستراب هذا النقش على الحائط. كلمات غريبة تعلو فوق كلمات الأمازيغ ولا تعترف بخط التيفانغ. هكذا خطَّ التّيديت:

"جعلتك أمامي في كل حين يا ملعون"

وبعد أن غسل ساقيه ببول حمار أبيض لبس طاقية صغيرة ومستديرة غطى بها رأسه. صفّ قدميه مع بعضهما. وصلّى صلاته المشبوهة دون أن يرفع صوته وكان جسده يتأرجح ويتذبذب في الصّلاة إلى الأمام والخلف كأنّه يقول لست ثابتا أنا أكذب أو أنّه يريد أن يُفزِعَ شيئًا ما. وبالفعل أفزع الكاهنة ماتيا التّي استفاقت من غيبوبتها مؤنبة إياه:

ـ أنت لست يهوديا لا تحرّف المزامير، أطلقت الجحيم وستحترق به. قاطع التّيديت صلاته غاضبا وقال:

ـ سأقتلكِ. يجب أن تموتي، كيف عرفتِ سرّ هيكلنا وتحالفنا مع لوسفير أمام الظّلام؟ سخرت منه الكاهنة:

ـ أشتمّ رائحتكم الكريهة من بعيد. هناك دين جديد سيفضح تحريفكم للأديان القديمة. وأخبر الذي علّمكم الخرافة، وحتّى لو رفع ظلامك شارة النّصر، وسقط علينا شركم الذّي يشبه الموت سيبزغ النّهار على الأمازيغ. صهيل خيول، هبوط وصعود، شيء قادم من الصّحراء، سنحبه بعد أن ندق الطبول، وبعد أن نقول ما شأننا به سنؤمن به. ولن نؤمن بمن قطع رأس حفيده من جاء من أجل السّبي.

ضحكت الكاهنة ضحكة هوميرية وبعد أن أطلقت هذه الأساطير والنّبوءات.. عادت لنومها المستراح. وأغمى عليها من جديد. طلع الفجر واستيقظت مانويلا الرومانية كالعروس بكامل براءتها. خدها وردي. وجهها يلمع من السّعادة. بشرتها صافية كأنّها باتت ليلتها قرب الينابيع.

غادر الأعمى ناجيبيان الغرفة بعد أن طبع بصمته داخلها، وتأكد أن قلبها بعد اليوم لن يثمر لغيره. بعد أن تحسّست بيديها حرارة جسده الساخن التي مازالت على الفراش. بدت كأنّها تعاتبه:

لم لست هنا جانبي؟ أحبك دائما هنا..

ارتدت ملابسها بسرعة كأنّها كانت تعلم قدوم زوجها بوكوس الذي يظهر ويختفي كالشّبح فجأة. فتح باب الغرفة بهدوء كأنّه كان في الحمام وعاد لينام بجانبها... لم تسأله هذه المرة كما تعودّت أن تسأل "لم لا تخبرني عن هذا المكان البعيد الذي تذهب إليه؟ لمَ لا تأخذني معك..؟"

استلقى بجانبها، هي جالسة في صمت، لم تنظر إليه حتّى ..

ظلّت تحدّق في الباب وسؤال واحد فقط يدور في ذهنها! سؤال العاشقة التي تبحث عن حبيبها. "لمَ لا يَحِنُّ. ويعود إليّ ؟"

ولمْ يسأل بوكوس أيضا هل مازالت ولهة به أم ضباب غيابه أطفأ نارها فلم تعد تنتظره أو تشتاق إليه؟ قال لها:

ـ قبل أن تومئ برأسك هكذا، ما الذّي تفعلينه ؟!

ارتبكت مانويلا وكفّت عن الدوران برأسها بحثا عن ناجيبيان!

ـ ماذا فعلتُ؟ لم أفعل شيئا.

ـ لا لقد فعلت يا مانويلا! اصّفر وجهها وقالت له:

ـ ماذا تقصد؟! أجابها بسؤال آخر:

ـ اسألي نفسك! لماذا جلبتك هنا معي؟ أو لِمَ أرسلونا ؟! أليس لنسفك الدم ونخرجه من عروق الأمازيغ ؟! أم لتنتسبي أنت إلى تاريخ الأمازيغ المقدس؟ ألم تلاحظي؟! أنّك أصبحت تشبهينهم؟! سأذكرك عزيزتي مهمتك غزوهم عقر معتقداتهم! لينسوا لباسهم أكلهم، مشيتهم، ويقتلهم غيابهم! ماذا حصل لكِ؟! ألا تلاحظين، أصبحت تتقنين لغتهم أكثر منهم؟! مهمتي أوشكت على الانتهاء. ستندلع الحرب بينهم قريبا. وبعد أن يهدموا أسوارهم

بأيديهم سيصحون متأخرين ولن يجدوا حينها ولو مدينة واحدة في نوميديا ليحكموها! لا تفسدي الأمر!

ـ أنا مرهقة الأن، أريد أن أعود إلى النوم ؟!

قالت مانويلا الرومانية كلامها هذا، وكأنها تقول لا لكل ما تفوه به. حملت لهجتها تمردا مبطنا. هل لكلام بوكوس تأثير عليها؟ لتواصل معه التآمر على الأمازيغ.

الملك أمدياز غاضب جدا من قائد الجيش الجديد ويسأل التّيديت الشاذ الذّي كلفه بمهمة تعذيب العجوز ماتيا:

ـ أين بوكوس؟! قل له أن يساعدني. على قائد الجيش أن يموت!

فسأله الشاذ:

ـ هل يعني موته لك الكثير؟! أنت الملك مُرْني ولا تكترث!

ـ أمدياز ليس ضحية عادية. مازلت أخشى الجيش، الجيش غير مضمون.

الشاذ:

ـ لا تخف دع الأمر لي، حكاية موته ستكون قصيرة جدا.

كما العادة ننسب قتله إلى مجهول! إلى التّي يهرب منها الصغار والكبار! تنكامرت نسمضلن من ستمزقه!

ـ يا إلهي ارحمنا من هذا العذاب، اختبأ أمدياز الجبان وراء كرسي عرشه، عندما سمع اسمها! ومن أين لك أنت أخبار البغلة الشّريرة؟!

ـ عد واجلس فوق عرشك أيها الملك لا تنكسر.

حرّك التيديت الشّاذ رأسه وعظام رقبته تطقطق وقال:

ـ نحن الذّين نحكم عبر العصور، وفي كل عصر، تنام وتنهض متى نريد. عندما تمتلئ السّاحات، بإشاراتٍ لا نحبها، وأغانٍ تطاردنا، وحتّى لا نختفي نحذّرهم في البداية من الذّي لا يجسّ ولا يمسّ، وإن لم يتراجعوا، نخرجُها لهم، لا تظهرُ ولكنّها واضحة. تقتلُ المتوهجين والحالمين..! بغلة القبور هي فزّاعتنا لعبتنا المفضلة.

لأنّ الملك أمدياز مجرّد لعبة لا أكثر ولا أقل، استعصى عليه الأمر لم يفهم سرّ رقصة التيديت.؟ نسي حتّى أنّه يراه عندما رأى نومينسا أمامه، وبحمق ليظهر نفسه أمامها في مظهر الملوك صرخ في وجهه كأنّه لم يعجبه كلامه أو لم يقتنع به أو لأنّه العبقري الذي يفهم أكثر منه.

ـ انصرف، اغرب عن وجهي، تعبت من حل مشاكلكم، ألا تستطيعون أن تحركوا رِجلا دوني؟! ونظر إليها بوجهه البشري القبيح ثم قال مُرحّبا:

ـ كنت أنتظرك بفارغ الصّبر!

وقبل أن يكمل ما يريد قوله، قالت نومينسا جملة واحدة:

ـ وافقت على الزّواج بك، ضع النّقاط على الحروف، افعل ما يجب القيام به. قبل الصبّاح أريد أن أكون في مضجعك!

وانصرفت. بقي أمدياز مندهشا في مكانه ينظر إليها وهي تغادر ولم يقم بأي ردة فعل.

وبعد أن انصرفت، وُلدت الكلمات في فم هذا الأحمق فأصبح كالدّجاجة الحالمة، يقفز محاولا الطيران لكنّ جسده الثّقيل

منعه من ذلك. حتّى في خياله لم يكن يحلم بهذا! ولهذا أخذ يصرخ كالمعتوه ليسمعه جميع مَن في القصر.

ـ أيّها الفلاسفة والشّعراء والفنّانون دونّوا هذا. اكتبوا عن تاريخ أمدياز الذي تزوج أجمل امرأة في تاريخ نوميديا. في السّاحة الحمراء بكل جرأة وأمام الجميع وفي وضح النّهار.

اقترب قائد الجيش الجديد من قفص الملك "هوار بن أوريغ بن برنس" وحيّاه في هيبة.

ـ لقد أشهرتُ في وجهه سيفي اليوم أمام الجميع. الكاهنة هويتنا إذا ألحقَ بها أي سوء، سيدفع عرشه وحياته ثمنًا. ولو كلفني الأمر إعلان الحرب على مجلس جماعة الاثني عشر ورجل الظل بوكوس.

لم ينبس هوار بحرف واحد لأنّ دمعة أسعفته. دمعة تحيّي وفاء وولاء الجندي قائد الجيش لملكه الذي نسوه، كأنّه لم يكن ولم يعد يتذكره أحد وراء زحام الأحداث في تماجورت. وبينما هم كذلك، جاء ذلك الفتى الصغير الذي أنقذته نومينسا من الجوع والعطش مهرولا ليخبرهما أنّ شيئا خطيرًا سيقع اللّيلة، قبل موعد وقوعه:

ـ يا هوار أنقذ نومينسا من أمدياز. إنّها تقرئك السّلام وتطلب منك ومن قائد الجيش، رعاية الكاهنة ماتيا إن حصل لها مكروه.

ما إن سمع هوار هذا الكلام حتى صرخ في وجه قائد الجيش بصيغة الأمر:

ـ أبلغ سلامي إلى الفرسان الذين تثق بهم. مازالوا يدينون بالولاء لي ولابني أنير. هذه الليلة سيتذكرها الأمازيغ، ولن تجد فيها ما تتخيل أيها الخائن.

وفي لمح البصر صافح قائد الجيش ملكه وطار كالرّيشة. فهل سيرمم الأمازيغ تاريخهم هذه الليلة أو سيخربونه؟

العروس تتخطى عتبة الباب برجلها اليسرى في مشهد جميل ملون متجهة إلى *"أشاموش" (يعني إحدى لبنات المنزل). وأمدياز في مشهد حيواني يخرج لسانه ثم يعيده ليعضه وكأنّ به غيظًا شديدًا. وصلت العروس إلى الباب، مدت رجلها اليمنى فهل تهيئها لتضعها على صدره؟! لا .. طبعا ..لا تقصدُ هذا. ضربة اثنتان. في الدّقة الثالثة دقّت ساقُها الباب بمرونة وفخذها العاري اللّين في آن واحد يسأله ليسحب منه قلبه. أسألك:

ـ لمَ لا تفتحُ لي الباب، وتعصرني كبرتقالة؟!

يفتح لها ..تضع يديها على خصرها الرقيق وتترك له فقط ركبتها عارية. ناعمة .. دقيقة ..صغيرة.. وحسّاسة.

ـ أما زلت لا تفهم؟ أنوثتي في متناولك الأن. استيقظ أنت تحت تأثيرها!

يجذبها أخيرا إلى الدّاخل بعد أن استعاد وعيه.

ـ أنا زوجك، نعم. تمددي نومينسا الآن ..ومدي جسدك لأنثر فوقه شهوتي. حارّ كالشّمس.. لم أستطع التّحمل. بسرعة.. انزعي...دعيني أرى الطريق بين نهديك ....

ـ أيّها الملك. أيّها الملك، استيقظ، استيقظ بماذا تحس؟ هل أنت مريض؟! ما بك ترتعش هكذا؟!

فتح أمدياز عينيه واستيقظ من غيبوبة نومه الشهواني. ويا لسوء حظه! من منام فيه زهرة تشبه وجه القمر! إلى شخص أنفه أكبر من وجهه. إنه أمدياز يحملق كالمعتوه..

ـ هل هذا وقت التمدد وحدك فوق كرسي العرش وأنت تهذي؟! إنّها في انتظارك. اذهب واستعد لأضيء زواجكما وأعلنه أمام الجميع وسط السّاحة الحمراء.

ـ يا صاحب الرّأس المفلطح ـ قال أمدياز ـ لا أعرف لم أنا خائف من هذه الليلة؟! ومن هذا الموعد مع نومينسا؟! لن أخرج من قصري قبل أن توفروا لي الحماية جيدا.

ـ لا تخف يا سيدي. كل شيء تحت السيطرة. جواسيسنا في كل مكان وأعيننا لا تنام والفرسان رهن إشارتك.

طار أمدياز الملك مسرعا كالعصفور الخائف ليعد نفسه لمراسم الزّواج، بخفة. لكنّه كان يرتعش بقوة، كأنّه لا يصدق كلاما التّيديت الذي لا يكفي ليغطي حجم خوفه الكبير...

ـ غريب أمر نومينسا! هل هذا التوقيت مناسب لتمد يدها وتعد حفلة شواء في حديقة القصر وحلم أمدياز المتوحش بات قريبا منها وسيتحقق! إنّها تستعمل أغصان نبات الدّفلى لشكّ اللّحم وأخشابه لشوائه! وتنظر إلى الشّواء باطمئنان وعلى شفتيها ابتسامة غريبة لا يُفهم سرُّها. شيطانية أم ملائكية؟! لكنّ نبات

الدّفلى يحدث هياجانا داخل جسم الإنسان. كانت نومينسا تحدث نفسها وهي تقلّب نبات الدفلى:

ـ عشت من العمر الكفاية أمدياز.. ستأكل هذه اللّيلة كمية كبيرة من اللّحم وبعدها سيسيل دمك سرًّا. عندما تشبع، لن تستطيع الركض أو النّحيب. لن يسمعك أحد. ستتنفس فقط بصعوبة وكرجل ذبيح سيصيبُك فشل في قلبك. وإن لم يقتلك اللّحم سأعدمك بهذا العصير!

حملت بين يديها نبات الشّوكران الأبقع المسموم. صوتها يشبه صوت التّفاحة المشؤومة التي أخرجت الأبوين من الجنّة! بدأت تستخرج العصير الذي ستشربه حنجرة أمدياز كالموت بعد أن تسقيه إياه.

الفصل العاشر

في مغارة مهجورة يقف الأعمى ناجيبيان بعيدا عن كل هاته الأحداث. ورغم هذا يظهر عليه التّوتر لدرجة أنّك تخال وأنت تنظر إليه بأنّه يحمل في قلبه قارّة من الوجع. ينظر إلى الجلد.. يتساءلُ بينه وبين نفسه! ثمّ يدون.. ينحني كحمامة مطوقة بأختام قدسية على ما يكتب فكأنّه من الحَوَارِيين! وبين الحين والحين يخرج من المغارة كأنه خائف من شيء ما. لو كان يستطيع أن يمنع ظله من أن يرافقه لتخلى عنه في أسفل الجبل. ما هو هذا السّر الذي يخفيه؟ هل يكتب تعويذة أهدتها له الكاهنة؟ أو يتخيّل شيئًا سَماويًا يُحَفّظُهُ سِرّا ما؟ غربته وعزلته هذه لا تحيل إلى الرّقص أو معاجم للعبث. صعوده أسطوري لا يبحث عن الشّهوات! أين يريد أن يبحر هذا الأعمى؟!

وبعد أن اطمئن قليلاً عاد ليكتب رغباته على الجلد. هل يؤرخ هزائم الأمازيغ، أم انتصاراتهم الكبرى؟! يقول الأعمى ناجيبيان:

ـ هذا المجلد كتاب أمازيغي مقدس، وأرجو من شعبي أن يتّبعني كما يتّبع المخلصُون من الرومان التّعاليم الروحانية لكنائسهم. لست أبحث هنا عن شرعية دينية كالتّيديت. ولست منزو داخل هذه المغارة لأتحدث مع الجدران وأنقل وحيا، صدى صوتهم القبيح الكاذب. فأرجوكم حافظوا على هذه اللّغة المكتوبة في هذا المجلّد إن عثرتم عليه. فلقد وضعت داخله أداتكم التعبيرية

الواضحة يا شعب الأمازيغ! عن أثاركم ووجودكم العميق. حفظت هذا لكم لأنّهم سيقولون عنكم أنّكم كنتم مجرّد ميّتين عبر التّاريخ. وحينها لن يفيدكم البكاء، كفتاة فقدت لعبتها، بعد أن تتأخروا في إنقاذ جذوركم الجميلة من القلع. إنّ آلهة الغَيْرِ الحزينة لا تضحك في وجوهكم، ولن تشعركم بالطمأنينة. وتلك الحيوانات المجنونة، الثيران، الطّيور، الخرفان التّي تأخذونها إلى حروبكم واحتفالاتكم لا تتكلم، ولا فائدة من انتظاركم الطويل لها، عاجزة عن إخراج الحكمة من أفواهها. مجرّد عبثيات غاب عنها الخيال المأثور لبشر حالمين بالفنّ والإبداع والتّميز. وحتّى تعاويذكم وأناشيدكم الدّينية، ستبقى مجرّد رمزيات لا تتطور لأنّ النّوايا وحدها لا تكفي. كلماتكم المزهرة الآن لن تُغنّى طويلا حتّى يثمر معتقدكم شيئًا كتابيًا واضحًا.

وقبل أن يعثر كلام الأعمى ناجيبيان عن مجرى بعيدٍ عن الصّخر، وقبل أن تحلّق الصّحائف التي بين يديه كالفراشة وتحطّ بسلام في تماجورت، تبدّدت رؤياه كعطر، بعد سماعه قرع نذير شؤم قادم من قريته الحبيبة. وفي القرية القديمة لا تعرف هل تعاقب الطبيعة الأمازيغ أم تكافئهم؟ هذه الأمطار الغزيرة هل هي دموع فتاة حزينة أم سعيدة جدا؟! رياح قوية ليس لها لون ولا طعم. حارة أو باردة المهم أنّها تعصف، وستقطف عددًا من الأشجار اللّيلة.

التّيديت الشاذ يضرب الطبل. وصوت هذا القرع مزعج جدا، سبّب صداعًا لجميع سكان المملكة. لماذا الآن، في أسوأ

الأوقات، في هذا البرد والمطر، يجمعهم؟ لن يبشرهم بأنّ وطنهم الذّي يئن ويتألم سيكون رسما جميلا في المستقبل ليبتهجوا ويغنوا ويرقصوا؟

أمدياز معه يصفّر بشفاهه كمراهق شقي يعاكس عيني فتاة جميلة بطريقة غبية. أو كعاشق ينادي حبيبته التي غرُبت فأضاء سناها غياهب روحه المعذبة.

يغطّي أمدياز لحمه بجلود حيوانية من أغنام وماعز ويقفز بسعادة بالغة. والتّيديت الشّاذ من الناحية الأخرى، يواصل ضاربا الطبل ليزيد من هيجان وفوران دم هذا المجنون الذّي يحمل في يديه قوائم عنزة، ويلوّح بها للحاضرين بشكل صاخب! ماذا يريد أمدياز منهم؟ هل يريد دعوتهم إلى ضمّه كي لا يشعروا بالبرد؟ دمه الآن أصبح أكثر دفئا بعد قيامه بهذه الحركات البهلوانية التّي أهدرت هيبته كملك. وعلى ذكر الملوك يضع الملك فوق رأسه تاجا وأمدياز يزّين رأسه الكبير بقرني كبش زادا وجهه وسامة.

توقف التّيديت عن الضّرب بعد أن أشبع الجميع انتظارا وبعد أن اغتصبهم وأغضبهم في هذا الطقس العنيف.. توقف أمدياز عن هرائه. بلع ريقه كطفل نزق يرتاح قليلا قبل أن يعود لجنونه. رمقه الشّاذ بنظرة تحذير تقول توقف عن هذا وإلا عاقبتك. ومن سوء حظ أمدياز، وقبل أن يبدأ التّيديت بمراسم الزواج ويقول:

ـ إنّها حبيبتك التّي لا تشبه أحدا سواك. من حقك أن تمدّ يدك وتجذبها إلى حضنك دون أن تنظر ببلاهة وتقول لك ماذا تفعل؟! وإذا بغبار ينكت الأرض، يغالبه صرير أسنان جائعة جاءت تبحث عن لحم أحدهم. الصهيل يقول لسنا لصوصا. والرّفس يضرب الأرض. يتمازج ودويّ الرّعد. وأمدياز كالمرأة الهاربة لم ينتظر ليتبيّن ماذا يحصل؟

نحو ألف فارس متقلدين سيوفهم، يتراقصون بها كالسّاعة ذات الرّقاص. هجموا رافعين الحديد فوق رؤوسهم واشتبك الفريقين فمنهم من طعن ومنهم من قتل. فرّ أمدياز في غمضة عين. لم يقل ولو كلمة طيبة واحدة لجنوده المصعوقين وكأن الموت أشاح بوجهه عنه. رجلاه تخطّان الأرض خوفا بين الألاف المحتشدة، ونفسه تلعن وتسب من أفسدوا عرسه. انفرجت أساريره حينما اقترب من بوابة القصر. صرخ من بعيد:

ـ مدوني بحبل النجاة. هذا أنا. هذا هو جسدي أنا الملك!

وقبل أن يقرع البوابة بيأس، فُتحت. كانت من أجمل اللحظات في حياته. أحسّ أن الموت قد عافاه وبابتسامة باردة قال للكتيبة التّي استعدت للخروج:

ـ أنتم هنا. ؟!

غادر الفرسان كأسماك ميتة خارجة من القصر دون أن يعيروه أي اهتمام، أو يطمئنوه أنّهم مازالوا موغلين في وفائهم له! ولم يسألوه حتّى ما الذّي يؤلمك؟! أو هل أنت عطشان؟! لم يطمئنوا

عليه أو يطمئنوه كما يفعل الفرسان مع ملوكهم ويتوعدون من سلب الطمأنينة من بالهم بالويل..

أمّا هو فاتّجه مسرعا وكعادته اختبأ وراء كرسي عرشه. ومن سوء حظه وما إن استفاق من محاولة قتله حتى وجد قاتلا آخر أمامه... لم تصدق عيناه اليائستان هذا، يقف الآن أمام أسد، في الظاهر يبتسم بهدوء وفي الباطن خرج جائعا من قفصه ليلتهمه رغم أنّ أنيابه مكسورة. سأل أمدياز بخبث وجبن:

ـ ماذا تفعل هنا؟

أجابه هوار وهو يضع تاجه الأصفر على رأسه

ـ الجبان يهدد إذا شعر بالأمان، هل تشعر بالأمان الآن؟ ألديك سؤال أخر أيّها التّيديت الميت؟

بألمٍ مرتبكٍ، بكى أمدياز كرجل يائس وقال لهوار:

ـ أرجوك لا تقتلني. لم أكن أتوقع أنّ المُلْكَ مخيف جدا هكذا. لنعقد إتفاقا الآن؟! تعود ملكا، وأعود تيديتا! فقط انتظرني هنا قليلا وسأعود إليك يا هوار. في الخارج هنالك معركة. سأستجلي الأمر. سدّ هوار عليه الطريق ساخرا:

ـ هؤلاء فرساني، أرسلتهم ليقوموا برقصة في الخارج مع فرسانك، ولتسقط أنت في حضني هنا. لأنّني كنت متأكدا بأنّك جبان وستترك أرض المعركة لأقتنصك هنا..

وعلى وقع كلمة الجبن لم يعرف أمدياز ماذا يفعل لن ينفعه الآن البكاء أو الاحتجاج. وهوار لن يقول له عفوت عنك لأنّ في عينيك

جرح وفي وجهك كآبة. وأمام فشل محاولة الصّلح امتحن أمدياز قدرته على الصراخ.

ـ يا حرّاس !!

كل شيء له ثمن وقد تكون حياة الإنسان ثمنًا للسلطة.

لعب معه لعبة القط والفأر سمح له بالصّراخ قليلا، وتركه يتسلل من بين أصابعه، ثم صوب الرمح نحوه.. ورماه فدخل الرمح من ظهره وخرج من صدره.

موت أمدياز كان ذابلا جدا ومؤلما جدا. تغمض عينيك حتى لا تراه. سكرات الموت قوية عليه. وهوار ينظر إليه كالوحش.

لم يكن الجرح بسيطا كجرح في إصبع طفل صغير، بل كان سيئا للغاية وعميقا عمق بئر أسود. سينام أمدياز داخله إلى الأبد.

كان الدّم يتدفق من صدره بغزارة، وجسده يهتز كالزّلزال. الدّماء تزداد تدفقا، ولون دمه يتغيّر إلى أحمر قاتم كأنّ أحدهم يخنقه أو يضع يده على فمه، أو أدخل في جوفه شجرة شوك فأخذت كل شوكة بعرق منه! ثم جذبها رجل شديد القوى فقطع منها ما قطع وأبقى ما أبقى حتى لا يتنفس أمدياز ويموت.

سُجّل اسم أمدياز في قائمة القتلى الجدد في تماجورت. بعد أن فشل فشلا ذريعا في أن يكون تيديتا حكيما أو ملكا صالحا.

قبل أن يقتله هوار قتله هؤلاء السّيئون الذّين يؤمنون بأنّ الحكمة تبتلعها المغاور فيغلقون مشهد الحياة الجميل في وجه التّيديت ليخرجوا لهم من بطنها حقيقة مزورة، لتصبح من بعد أفيونًا للحمقى.

نعم تعجّ المغاور كالقبور بأناس مازالوا يحلمون بالحياة في تماجورت. يا ليت الأمازيغ يتعلمون أنّ التّدين لا يعني سجن حركاتك بحجّة أن الفراشة التي ترقص حول مأساتها بطيش تحترق هباء.

خنقك لجسدك الإنساني يعني قتله من دون قصد، دع روحك تحب، دعها تكره، ولا تدعه ينام بطريقة واحدة، ما الحكمة في أن يملك الإنسان قلبا إذا؟ حتى لا تصبح العاطفة كالآلة تبتسم وتضحك لمن يضع يده على الزّر، والقبلة مبرمجة في غير اللّحظة التّي يدق فيها القلب بقوة.

واصل الملك هوار طريقه ببرود كأنّه لم يغتل أحدا أو أنه لم يرسل أحدا للقتال. ولكن قبل أن يطيل المشي طويلا أو يجلس، جاءت نومينسا تبحث عن أمدياز، والتقت عيناها بعينيه.

عيْنا الملك الحقيقي مازالتا تحملان الحنين إليها. حنين جارف قطع الطريق أمام أمدياز وحمله على قتله ونشر دمه في قاعة العرس.

جرت نومينسا تحمل فوق رأسها غمامة سوداء في اتجاه الجثّة لا لترثيها أو لتزيل دماءها أو لتسأله لم قتلته! قالت له لتحميه وهي لا تصدق ما تراه عيناها:

ـ غادر الأن قبل أن يمسكوا بك. كنت سأقتله وحدي وستكون كل الأمور بخير!

قال لها هوار:

ـ كل شيء سيبدأ الآن. عدت من أجلك ومن أجل أن أبحث عن ابني المفقود ؟!

أيقظ كلام هوار بن أوريغ بن برنس تلك القصيدة القديمة النّائمة في قلب نومينسا، القصيدة الجميلة والحزينة. وضعت نومينسا يدها على قلبها، نسيت أمر الجريمة. فالهدية التي سيقدمها لها هوار أكبر ممّا كانت تتصور. نعم لأنّ هناك حبا لا اسم له، يمتنع عن الكلام ربما لأنه يريد أن يظل محتفظا باسم حبيبته في قلبه ربما يكون أنير ذلك المُحِبَّ.

لم تنبس العاشقة بكلمة، ليس لأنّها لا ترغب في سماع المزيد، بل لأنّها لا تستطيع الكلام. لم تعد تستطيع التّنفس من السّعادة وصدمة الخبر. ولم ينبس هوار بكلمة أيضا. قدم لها رسالة ودفن وجهه في الأرض بعدها مباشرة.

التهمت عينا نومينسا الأحرف:

"أبي إذا كان عرشك نعشي، أخبرهم بأمر احتضاري. وأدفن شخصا أخر عوضا عنّي. لا أتجرأ أن أسألك لم فعلت هذا لأنّك أبي الذي يأمر والملك لا يناقش. لكنّني تمنيت قبل أن ترسله لقتلي، بأن تعدني أنّك ستشيّعني إلى قبري.

أقسم لك بما تعبدُ ما استدرت حينها ولم أبعد ذاك الخنجر. وانتظرته دون بكاء حتّى يكمل غرز طعنته عميقا في فؤادي دون أن أحدث جلبة في ساحة المعركة. أبي سامحني قتلته حتى لا ينتبه جنودي إلى توسلاته ولا يسمع أحد اعترافه لي بأنّك من

أرسله لقتلي. لا تخف قلت لجيشي إنه خائن ومتآمر مع الرّومان. إذا كنت مصرا على أن تغمض عيني، معي الآن ثلاثة جنود مخلصين يعالجونني. أرسل لي فقط تلك العاشقة زوجتي، ثم صغ خبر موتي كيفما تشاء.

سآمرهم أن يخبروا من أحبني ومن كرهني، أنّ طعنة الجبان القاتلة لم تترك لعمري بقية. مات أنير كإنسان مقتول، أكملوا المعركة وادفنوا الرّومان قاتلي قائدكم أحياء. أوقفت حصاني بعيدا على تماجورت. قل لنومينسا بأنّي أنتظرها عند أرض "أَثْوَبْ".

فقط لا تعتبرني ابنا مجهول الهوية لأنّني ابنك يا أبي وإياك أن تظنّ يوما أنّي ضحيتك. اعتبرني الآن اختفيت. إن لم ترسل نومينسا، أرسل من يضع سكينا في قلبي، لا أستطيع أن أعيش عاشقا وحيدا، ومحروما من كل شيء كأن أعيش في وطني باطمئنان."

لم تصدق نومينسا ما قرأت. رسالة خضراء تحدّثها أن زوجها يقف في "أَثْوَبْ" مستاء وحزينا. لقد انتظرها طويلا ولم تأتي. للانتظار يدان قاسيتان جدا وأظافر طويلة. فهل مزّق قلب حبيبها؟ نعم قلب نومينسا هو الصّادق وهم الكاذبون. كانت تعرف وكانت تجزم لو أنّه كان نائما كما زعموا في ذلك القبر في تلك المقبرة، وسمع كل أغانيها الحزينة لأستيقظ وشبك قلبه بين أصابعها ونام في حضنها إلى الأبد. ولم يكن ليسمح لها أن تعود إلى البيت وحيدة أو أن تسير بين ثنايا الحياة مكسورة

مذبوحة بلا هدف. وما كان ليسمح للاميا أختها بأن تتهمها ببغلة القبور، لأنّ عيني أختها المليئتين بالدّموع تشبهان مقبرة على قيد الحياة. فتسلمها إلى الخرافة التّي تعتبر المرأة العاشقة الموغلة في الحب موغلة في الخطيئة.

أين ذهب هوار؟ هل تراه هرب بعد أن ترك بين يديها غبار كلمات يابسة وقصائد ذابلة؟ مستحيل أن تغلق نومينسا عينها على هذا الخبر الذّي أهداها السّعادة وسرقها منها بسرعة. لن تتركه يهرب منها هكذا!

كذئبة كاسرة، لحقت به. كادت أن تلتهمه قبل أن تلتف يداه المملوءتان بالحزن حول عنق فرسه في الحديقة. أمسكت السّرج وصاحت به:

ـ أيّها الرّجل الشرير أ ببساطة تذهب؟! ماذا حصل لزوجي لمَ لم ترسلني إليه؟! أيعني هذا أنّك قتلته؟! أيّها السّفاح...

لم يتركها هوار تنفعل أكثر وقال:

ـ أنير حيّ يرزق. اطمئني... دعيني فقط أذهب لأنهي المعركة قبل أن يبيد الأمازيغ بعضهم بعضا فتصبح تماجورت عاصمة موت. وسأعود مباشرة لأخبرك. أعدك مثلما جعلتكما تفترقان سأجمعكما!

مسكينة نومينسا، لم يختر هذا الرّمح إلاّ هذا اليوم، لينغرز بين كتفي هوار وخرج يلمع من صدره متوهجا بدمه. لم تفعل شيئا. سقط الملك الحقيقي إلى الخلف ودمه يتدفق بين أحضان حبيبته، ينشج كأجراس كنائس جنائزية.

أرادت نومينسا أن تقطع المسافات لتثأر من هذا القاتل المختفي المتلحف بالظلام لكنّ هوار منعها.

ـ كفّي عن الصّراخ، اجلسي واخفضي رأسك لا أريد أن يصيبك مكروه بسببي إنّ الجبان يراك ولا ترينه... استلقي دعيني أموت في حضنك...

استلقت نومينسا. استلقى بكامل أناقة الملوك وهو مبلل بالدم فحضنته نومينسا بشدّة. وقالت له وعيونها تفيض دمعا:

ـ لا ..لن تموت

قال لها:

ـ لا تحاولي.

ووضع رأسه المنهك على صدرها. إنّه يجذب الهواء بصعوبة، كأنّ كل خناجر العالم انغرست في حنجرته ورغم هذا.. نار أجيج حبها في صدره لم يمسسها ضرر. همس باسمها مشتعلا:

ـ نومينسا هل تعلمين أغبط لساني الذّي بناديك باسمك الأن وهو يرتعش. وضع يديها المضطربتين فوق شفاهه... حتى وأنا في القفص، خيالي كان يحتضنك. أرجوك سامحيني نومينسا. فعلت ما فعلت بك، وحاولت أن أُخضعك لأنّ قلبي كان يحترق من شدّة حبك. أنا كالشجرة التّي لم تثمر غيرك. بعيدا عن حبك، أنا رجل عقيم. كم كنت أحمقا لأنّي لم أعرف كيف أعبر لك عن حبي. ليت الحبّ ترك لي حرّية الحركة، حتى لا أقع في حب لا يصدق، حزين ومخيف كفزّاعة يهرب منه الجميع. كيف وقعت في حب زوجة ابني؟ كيف وقعت في حبّك لا أعرف؟

لفّ هوار ذراعيه بصعوبة حول كتفيها ونظر إليها أخر نظرة تشي بأنّ الوقت لم يعد كافيا ليظلاّ معا. بسرعة اعترف لها:

ـ قبل ثورة أنير الكبرى، لم تكن توجد هنالك حلول جماعية لمقاومة الرومان، وتلك المحاولات المتهورة لضرب أعدائنا كانت هواجس شخصية لمتهورين ينقصها التخطيط. لم تكن لتذهب بتماجورت لطريق النّصر بل إلى الهلاك. حاولت قدر المستطاع أن لا ندخل هذه الحرب خاسرين لأنّهم أقوى منّا.

أحسّت نومينسا أنّ قلبه يدق بقوة غير عادية، بقوة أكبر. مسحت عرقه ونزلت منها دمعة على خده تجرّ حزنا شديدا عليه. وقبل أن يهن قلب ملك الأمازيغ العظيم هوار بن أوريغ بن برنس. قال لها أمنيته الأخيرة، أن يختلط ريقه بريقها. لم تجفل نومينسا هذه المرّة بل تبادلت معه هذه القبلة وتركته يلثمها... لأول مرة! بعدها مباشرة خرجت روحه من بين كتفيها.. حقّق هوار حلمه. وكما يغطّي الغبار الغرفة التّي لا يفتح بابها، غطّى السّكون جسده كتمثال متعب لا يتحرك. كأنّ تعب العصور كلّها حلّ به. لم تتحرّك نومينسا استسلمت لحضنه الميت.

وهي تبكي كانت تحتسي دموعها الغزيرة. لم تتكلم. نُسف لسانها. وبعد فوات الأوان لم يعد هوار بن أوريغ بن برنس في نظرها ذلك الشّرير.

لماذا بعدما يموت النّاس، نراهم مذهلين؟

ـ هوار فعلا لم يحرق عاصمته كما فعل نيرون، بل دافع على حقول الأمازيغ المحترقة. أليس كذلك يا نومينسا؟ كل ما في الأمر

أنّه قال لك أحبيني! ووضع يده على كفّك المليئة بالمسامير، وعندما قلت له "لا أحبك!" فقد هوار عقله من شدّة الألم، لم يتحمل هذا الخبر السّيء. من شدّة ألمه، شدّ حبيبته من شعرها بقوة، لا ليؤذيها بل ليسوي خصلاتها الغير متناسقة كي لا تغمض عينيها بعناد ولا ترى قلبه. هو أيضا لم يكن جيدا بما فيه الكفاية، لكنّه لم يحقد على ابنه كما ظنّ أنير. وليس لأن ابنه سيكبر وسينافسه على الحكم.

لم يبصق هوار يوما على أرضه بحقد كما فعل بوكوس. ولم يكن يوما جبانا مثل هؤلاء الذين يفضلون وضع سيوفهم في المتاحف. لم يفهمه شعبه لأن عينيه كانتا تنظران إلى الأفق بتروٍّ. فمدينة محاصرة أفضل من مدينة سقطت بعد أن فتحت أبوابها بدعوى المقاومة.

بجنون وجنوح وتهور يقفز فرس هوار بن أوريغ بن برنس عاليا ويصهل كأنّه يريد أن يطير ويقطع التّضاريس الصخرية، والصحاري، والأنهار، والقلاع، والغابات ويحمل قاتل الملك إلى القبر انتقاما لموت سيّده.

فهمت نومينسا ما يريده. ربطت هوار بن أوريغ بن برنس فوق حصانه كقديس، وتركته يذهب ليختار مكان دفنه. ومشت في اتجاه البوابة حاملة بين يديها سيفه.

كم بدت نومينسا مخيفة، هذه المرة ضاع جمالها منها وهي تتوعد بصوت عالٍ:

ـ أنتَ. وظيفتك أن تصيبنا باليأس! سأنتقم منك... سأنتقم.

لا يشتمّ بوكوس رائحة الهواء تحت الأرض. من هذا الصّديق الجديد؟ يلتقيه سرّا داخل أعماق البئر! لمَ يختبئا هكذا في قاعة هذا المعبد السّري؟!

ـ يا بوكوس انظر إلى مئزري يحميني من شظايا الأحجار. هزّهم أكثر يجب أن يحطّم هذا الزّلزال تماجورت. العين، العين، العين، يجب أن تكون في جميع المدن والقارات والعواصم والقرى. حان وقتك الآن أيّها الفارس المخلص لروما حان وقتك. الفوضى حليف مخلص. اغتنم فرصتك الآن لأنّ شمس الأمازيغ منهكة. استغلّ حاجتهم البشرية للنظام .. الفوضى تقوض النفوس قبل البلاد.

اقتربنا، اقتربنا كثيرا. وعيننا الشّيطانية تتأهب لقدومنا .. هدفنا السّيطرة على تماجورت من داخل تماجورت ثم تدميرها من الخارج. هيّا الآن لنشرب الدم. نخبك.. ونخبنا على وقع أحزان الأمازيغ الآتية من أعماقهم. سيقتّلون بعضهم عندما يشتدّ بهم الخوف، عند تعاستهم يكتمل بدرنا فيكون شاهدا على قدوم جيوشنا وموتهم جميعا.

يشرب بوكوس وصديقه القادم من الهاوية الذّي لا يتحدث إلاّ عن نهاية تماجورت والدم. هذا الدّم الذي ينزل من شفتيهما لا ينظرُ إلاّ للأسفل. دم قديم دنّس المقابر وخاصم حتّى الأموات. طقوس معادية للمسيح. المسيح الذّي ينظر بعين الارتياب والخوف ويحذّر الكنيسة من هذا السّر المهزوم الذي يريد احتلالها وأخذها إلى ضلال المجهول فيغتصبها سيّد العتمة...

بعد أن ربطت هوار فوق حصانه، مشت نومينسا ببطء في اتجاه السّاحة الحمراء. حينما وصلت لم تجد حبيبها أنير
يطل عليها بحنان ويتأسف لها عن كلّ ما حصل في تماجورت مطمئنا إيّاها أن الأمازيغ سيطوون صفحة الماضي وأنّ هذه اللعنة التي حلت بهم ستختفي، ويدعوها مباشرة إلى نزهة.
ودون أن تجيبه تضم يدُها اليسرى يدَه اليمنى ويمضيان باسم الحب تاركين وراءهما الماضي الممزّق.
لكنّها على أرض الواقع، وجدت السلام محنطا في السّاحة الحمراء. جثث مرمية على أرض المعركة. الأمازيغ يخدشون وجوه بعضهم كالأطفال. كل فارس من الفرسان هنا يريد أن يثقب قلب أخيه الفارس. ولو دامت هذه المعركة أكثر، لسقطت تماجورت، وسقطت السّماء فوقها. لولا صرخة نومينسا التّي أخرجت كل شيء مخفي في قلبها. وردة زوجها التّي قطفوها من صدرها، وصوت الضّحايا الذين يسألون القاتل!
حكّم نزعتك الإنسانية أيّها البشريّ.
خطر يمزق الأرض المحروقة التي ستستحمّ، بعد أن تغير الطبيعة بدلتها لتتهادى وتعود من بعيد منتقمة بعواصفها ورياحها من الذّي يمشي ليلا ولا يحلم!
صرخت نومينسا بلغة عتاب قادمة من السّماء:
ـ توقفوا! من أجل من تحاربون؟ مات الملكان! مات الملك هوار بن أوريغ بن برنس، الأنا النّرجسي الذّي لم يعرف كيف يدافع

عنكم! مات أمدياز متمردا باحثا عن نفسه. ضيعته نفسه الغير متناغمة كالفصول.

لا يوجد سبب ملح زائد أو ناقص الآن أكثر مما قالته نومينسا يوقف هذا القتال. وفعلا، كأنّ الجميع اعتزل الحرب. نكست جميع السّيوف رؤوسها وهي ترتعش. قالت لهم نومينسا:

ـ اذهبوا إلى القصر وستجدون هوار ميتا فوق فرسه وأمدياز ملقى على الأرض.

لم يلتفت أحد إلى الوراء توجه جميع الفرسان إلى القصر. مضوا مسرعين وكأنّهم سعداء بانتهاء الحرب! أو أنّهم جميعا غاضبون ويريدون تكذيب هذا الخبر والعودة إلى أرض المعركة بسرعة وإنهاء هذا القتال. لكنّ تماجورت أم المعارك على ما يبدو. فهنالك معركة أخرى قادمة...

بمجرّد مغادرتهم جاء كائن أنثوي يحك سيفه على الأرض بين طيّات الظّلام، معلنا حربا أخيرة. إنها لاميا أخت نومينسا تتوعد بالثّأر :

ـ أنت من قتله؟ وما دمت هنا بيننا لن نشعر بالأمان يا نومينسا.. أنير.. ثم هوار.. ثم أمدياز.؟! ماذا تبقّى؟! لا تبحثين عن الحياة يا تنكامرت نسمضلن أنت ملعونة ويجب أن تموتي.

ردت نومينسا على أختها:

ـ سمّني ما تشائين. حسنا، أنا بغلة القبور. وهذه اللّيلة مضطرّة لقتلك وإنهاء عقدة غيرة الأخت القبيحة الشّريرة من أختها التّي تبدو أجمل منها ويحبّها الجميع إلى الأبد. سأقتلك بسيف الرّجل

الذي أحببتهِ وخنته بعد أن أرشدت بوكوس إلى النفق الطويل الذّي يؤدي إلى غرفة أسراره.

ودون بقيّة كلام هاجمت لاميا بكل ثقلها أختها وما كانت إلاّ أن تهاجم موتها. لم تدم هذه المعركة طويلا. فبضربة واحدة من سيف نومينسا على رقبة أختها قطعت رأسها. وطار رأسٌ أخر هذه اللّيلة.

ببرود، لم تلتفت نومينسا لتلتقطه أو حتى لترثي أختها ولحقت مسرعة مع من اتجهوا إلى القصر خوفا من عودتهم للقتال مجددا.

القتال انتهى بين الفريقين لكن رائحته مازالت تفوح بشدة، ربما هم يهيئون أنفسهم لمعركة أكبر. لأنّ هنالك فيلقا كبيرا بقيادة قائد الجيش الجديد يبحث عن الثّأر،

عن قاتل هوار غدرا. ويتّهم معسكر الجيش الآخر الذّي يقوده التّيديت الشاذ علنا، وبوكوس سرّا، بالغدر والطّعن من الظهر.. العدو الذّي قتل ملكا عظيما بالغدر.

والآخر يتهمهم وهوار بالتّسبب بحرب شاسعة، والخروج عن العرف وثقافة الأمازيغ. والاستجابة إلى دعوة ملك ملعون دعاهم إلى الحرب، ويصفونهم بالانقلابيين أو الخائنين المدعومين من الخارج من قبل الرّومان.

مازال الكلّ يحافظ على برودة أعصابه والقليل من الحكمة مصدرها قيمي لدى الشعب الأمازيغي متوارث منذ القديم

ويقول بأنّ الحرب بين الأمازيغ تتوقف أو تؤجل لفترة، في حداد عفوي لروح شيء عظيم حكمهم وأعطاهم الكثير.

في الأفق البعيد قائد جنود روما هناك يأخذ مباركة الكنيسة. والأعمى من هنا يبدو من بعيد كقديس ومن قريب كثائر. يدور بخفة حول حفرة دون أن يسقط فيها. ثم توقّف كأنّه أبصر شيئا قادما من الغيب. فتح عينيه لأوّل مرة. وقال:

ـ لن نخسر شيئا... حتّى وإن لم يعد أنير سنردم هذه البئر...

تيهٌ يحثّ خطوه لتتبخر وجوه ألفت العذاب. اختفت الكاهنة بطريقة عجيبة. ولم يعثر التّيديت الشّاذ في مكان سجينته إلا على هذه العبارة المرسومة على الحائط:

-"الحضارات تموت انتحارا".

حاول جاهدًا أن يمحوها لكنّه سمع صوتًا حزينًا يردّدها بعمقٍ شديد، صوتا آتيا من الجبال...

Livre

المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+